دائرة العشق والصمت

دائرة العشق والصمت

أشرف مراد

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 23932 /2018

I.S.B.N:978- 977-6640-32-0

الطبعة الأولى 2018م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

أشرف مراد

دائرة العشق والصمت

رواية

زين للنشر والتوزيع

(1)

خرجت من منزلي في العاشرة مساءً، أسرعت إلى داخل سيارتي أحتمي من برودة الجو. كان يومَ خميس وكانت الشوارع مزدحمة صاخبة مثلما اتفق. بَقِيَتْ خمسةٌ وأربعون دقيقةً تفصلني عن الوصول إلى نقطة تجمع المسافرين. كنت أحدَهم وقد وصلتُ بالكاد في اللحظة الأخيرة.

أردت أن أضع حقيبتي الصغيرة في خزانة الحافلة فَوَضَعَها عني رجل بدين عرفت فيما بعد أنه سائقها.

مرّت دقائقُ لم أعرف عددها فقدت خلالها إحساسي بالمكان كعادتي عندما تسبقني خطواتي فتتجاوز إرادتي. يشغلني مايدور برأسي عن كل شيء وإن كنت لا أعاني "السَّرْنَمَة" لست أسير أثناء نومي. ولكن ربما كنت أعاني ما هو أسوأ، يبدو أنني أنام أثناء سيري فلا أتذكر عندما تطأ قدماي نقطة الوصول ماذا فعلت في طريقي ومن عساني رأيت أثناء انتقالي بين الأماكن.

وجدتُني أخيرًا أجلس في أحد مقاعد الحافلة المغادرة في رحلة نحو الشرق ملقيا برأسي فوق مسنده. أسدلت ستارًا بيني وبين عقلي حتى يتوقف عن خيالاته، وكعادتي مؤخرا رغبت أن أفقد إحساسي بالزمان والمكان معًا.

كنت أغيب كأنني مستغرق في حُلْم ثم أَفْزَعُ وكأنني أفيق على كابوس.

وإذ غلبت عودتي تَغَيُّبِي فجاوزت الكابوس أقمت رأسي الغارقة في بحر الشتات كي أواصل الحياة لأيام أو ربما لساعات أخرى، ثم نظرت إلي مُرَافِقِيَّ الذين اصطفوا على جانِبَي الحافلة بأعينٍ مُتغرّبة.

أحاول إدراك ذلك المكان الذي أُحضرت إليه، أتفحص وجوه وخبايا أولئك المسافرين الذين لا يستقِرُّون في مقاعدهم لوقتٍ طويل وقد اطمأنُّوا لِمَا بدا وكأنّ تلك المقاعد قد أَلِفَتْهُم مثلما ألفوها؛ و لِمَ لا وهم يعرفون جيدًا إلى أين يذهبون.

وإذ لم أكن مكترثًا بما يدور من حولي فقد بدوت كمن أتى من الماضي البعيد أو كغريب ضل الطريق وخِلْتُنِي سأبقى غارقًا في غربتي طوال الرحلة حتى أنهم قد استغربوني، وكنت محقًّا فيما خِلْتُ.

فأنا وإن كنت أبدو أصغرَ سنًّا من عمري الحقيقيِّ الذي اقترب من نهاية الأربعينيات -وإن كانت هيئتي تخصم من رصيد عمري عشر سنوات- فإنَّ ذلك لا ينفي حقيقة أنني أَكْبُرُ معظمهم بِعِقْدٍ كامل أو يزيد قليلًا.

ثم إنني هادئٌ ساكنٌ لا أتحرك زائغُ العينين إلى حدٍّ يثير الريبة، صامتٌ إلى حدٍّ يبعث على الملل، فيما هم نَشِطُون لا يتوقفون عن الحركة، مندفعين لا يُلْقُون بالا لأحد مثرثرين حدَّ السَّفَهِ ومقبلون على ما يظنونه مثيرًا للاهتمام ولم أكن أراه إلا مثيرًا للشفقة.

مر وقت طويلٌ قبل أن أستقل إحدى الحافلات مغادرا مدينتي المزدحمة إلى إحدى مدن الشرق البعيد في رحلة تستغرق زمنا يقارب ست ساعات من السفر. وفيما كانت الحافلة تشق الطريق الخالي

شقا كنت غائبا أرخي لذكرياتي فَتُلقي في نفسي باقاتٍ ملونةً من أوقات مفرحة عشت خلالها لحظات سعيدة.

فإذا ما استغرقت في حُلْمِي الجميل كانت أصوات الهمهمات والوساوس تخترق دوائر الصمت التي أحاطتني فتُعيدني سريعا من لحظات سعيدة حالمة مِلْؤُها الابتسامات الرائقة الصافية إلى نوبات ألم موجعة تُظَلِّلُنِي بالأحزان وتُهْدِينِي مذاقاتٍ مرةً أتجرعها تِبَاعا إلى أن يكسوَ وجهيَ الأسى ويطل من عَينيَّ أنينٌ.

في إحدى نوبات الألم حضرتني ذكرى أيامٍ كنت أنتقل راكبا في رحاب الباص الأزرق المتأرجحِ القافزِ في كلِّ اتجاهٍ قاصدا وسط المدينة. فلمَّا كانت الحافلة التي أستقل الآن تهتز كريشة سليبة تعبث بها الرياح من كل جانب ولمَّا كان سائقها البدين المتعافي مصرا على أن يقطع الطريق الخالي -إلا من رمالٍ على جانبيه وبعضٍ من الشجيرات المعفَّرَةِ العطشى- بسرعة جنونية فقد تذكرت أيام الباص الأزرق اللعين الذي كان يقوده سائقه النحيل دائرا به بين الناس والسيارات والموتوسيكلات وعربات الكارُّو وكأنه يقود عربة "اسكوتر" في أحد الملاهي. فاستقر في يقيني ما ظننته حقيقيًّا حول هيستريا التَّعَجُّل التي لابد وأنها تصيب سائقِي الحافلات أو التي ربما يُولَدُون بسماتها الوراثية؛ فالجنون واحد وإن اختلف لون الحافلة وإن اختلفت الأجواء والمناظر. وربما كان من الجيد أنني لا أعاني هنا زحام الركاب ولا صخبهم حيث لا تَوَقُّفَ لاستقبال ركاب قادمين ولا تباطؤ كيْ نودعَ ركابًا آخرين مغادرين.

وعلى أية حال فقد توقفت منذ فترة عن ركوب الباص الأزرق المتأرجح ولم أعد أُبالي إن أسرع سائق الحافلة التي نستقل الآن أو أبطأ. ولم أعد أنتظر أن يغادرَ راكبٌ أو يصعدَ آخرُ؛ فقد توقفت منذ

فترة عن تبادل رسائل بريد إلكترونيٍ مع (داليا). كثيرًا ما كنت أُخفق مراتٍ ومراتٍ في أن أقيم إبهامي أو أتملكه كي أكتب إليها بينما أهتز وأتمايل إلى الأمام والخلف وأنا جالس في أحد مقاعده.

الآن غادرتها البدايات ومن ثَمَّ فقد انهارت رغبتي في أن أترك لها رسائل أخرى مثلما اعتدت أن أفعل قبل افتراقنا؛ فلقد ضلت رسائلي كلَّ طريق إلى قلبها واختفى تأثير كلماتي وغاب عنها بريقها وصرنا كمن لا يعرف كلانا الآخر.

يا للغرباء!

وإذًا رأس شيطان هي وجهتهم التي يقصدون لابد وأنها وُجْهَتِي أيضا فأنا قد أُحْضِرتُ لأرافقهم إلى تلك الرحلة بعد أن رهنت أمري للأقدار ووهبتها إرادتي كي تقرر لي ما ينبغي فعله.

وقد أدركتني بقرارها الحاسم في اللحظة الأخيرة وحَمَلَتْنِي إلى هنا بينما كنت لا أزال موقنا أنْ ليس ثمة فارق كبير بين ذلك المكان الذي ستحملني إليه وبين أيِّ مكان آخرَ في هذا العالم.

كان قد مر ثلاثة أيام إلا ساعة قبل أن أُحمل إلى تلك الحافلة التي احتل مقاعدَها شبانٌ وفتيات يقصدون السفر لقضاء أيام ثلاث في رحلة إلي الجزيرة الخلابة. وقد احتجت إلى ساعة واحدة لأن تُحْضِرُني أقداري إلى هنا.

فلمَّا كنت أبحث في وجوه المسافرين عن أحد يشبهني تعذر عليَّ أن أجده بينهم؛ فليس فيهم من تتناثر في لحيته شعيرات رمادية كثة تخترق باقي شعيراتها السوداء الداكنة وليس بينهم كذلك من احْمَرَّتْ عيناه وكأنه قد أسرف في الشراب حدَّ الثُّمالة.

وزادني اختلافي اغترابا وفرَّق بيني وبينهم فلم يكن يجمعنا شيء تقريبا. فلما أخفقت في أن آلَفَهم استشعرت الوحدة ذاتَها التي لازمتني طوال حياتي حتى في تلك اللحظات التي أُزْرَعُ فيها في جمع من الناس.

كانت (سارةُ) تحاول أن تكون قريبة من حدود عالمي البائس كي تقتل أحاسيس الغربة التي تعزِلني عن عالم لم أستسغه قطُّ ولم يألفْنِي أبدًا ولكنها لم تكن لتفلح في محاولاتها بسهولة؛ فأنا وإن كنت لا أملك إلا أن أبتسم في وجهها ممتنا لاهتمام تبذله من أجلي فإنَّ (داليا) الغائبة عن المكان بجسدها ما كانت لتفارقني بِرُوحِها وإن زُرِعْتُ بين معشر النساء جميعهن.

على أنَّ ذلك ما كان ليسعدني أبدا؛ فقد كنت أراني خائرًا هَشًّا إلى الدرجة التي أعجز فيها عن النسيان وكنت أسخر من نفسي لضعفها وكثيرا ما كنت أنهرها عَلَّها تستفيق من غيبتها.

ولأن صراعاتي كانت تقسمني ولأن ملامحي التي أعرفها جيدا كانت تتبدلها نوبات من الحزن والاكتئاب ونوبات أخرى من الابتسام الساخر المرير فقد خَشِيتُ أن يراني أحدهم فَيَظُنُّنِي مجنونا.

أحسست بعدم الارتياح وتملكني الندم لإقدامي على المجيء إلى هنا فعدت أُغلق عينيَّ من جديد عَلَّنِي أتجاوز كثيرًا من الأسئلة التي لم تتوقف عن مطاردة خيالي منذ افتراقي عن "الطبيبة".

وكنت أسأل نفسي: ماذا أتى بي إلى هنا؟! ثم أميل إلى البحث عن سبيل لمغادرة هذا الصندوق الحديديِّ المزعج الذي يحملني بعيدا دون رغبة مني قبل أن أعاود البحث عن ذلك النسيان الذي توهمت أنني قد أجد في السفر سبيلا إليه.

فلما أيقنت أن لا أمل في نسيانها وأن لا سبيل للعودة من حيث أتيت أغلقت عينيَّ عنْ ما يدور في رأسي متوهما أنني لن أراه، وأردت أن

أغيب بداخلي فلا يبدو ما أعانيه ظاهرا في عينيَّ، ورأيت أنه ربما أمكنني في مغيبي أن أعود إلى غرفتي وسريري.

وإذ غادَرَتْ إحدى نوبات الاغتراب التي استغرقتني تباعا الْتَفَتُّ فرأيت (سارةَ) ترقب اضطرابي من مقعدها القريب وقد أخفت عينيها الواسعتين خلف نظارة سوداء داكنة. ثم تصادف أن مَرَّ ضوء يتسلَّلُ خلف ستار كان قد غطَّى معظم زجاج النافذة المطل على مقعدها فتعامد على عينيها. فالتفتت عيناها بسرعة الضوء العابر الذي ما لبث أن حُجِبَ خلف أحد جانبيّ الجبل الصخريّ الذي شقه الطريق، فلمَّا نهضت من مقعدها الموازي لمقعدي أفسحت لها الفتاة التي تجلس إلى جوارها ممرا للخروج فخرجت.

ثم اقتربت مني وألقت بذراعها الأبيض اللامع الذي يكاد يضيء فوق مسند مقعدي وقرَّبَت وجهها من أذني فظننت أنها ستهمس لي بسرٍ، فلما اعتدلتُ لأستمع لها واستحضرتُ في وجهي ابتسامة نهض الشاب الذي يجلس إلي جواري وأراد المغادرة فأفسحتْ له ممرا للخروج فغادر مقعده فاحتلته (سارة) لفورها. وسألتني إن كان يضايقني أن تجلس إلى جواري ثم نَوَّهَت إليَّ أن المقعد الذي خلا إلى جواري إنما هو مقعدها.

قالت: رأيتك وقد أغمضتَ عينيك فظننتك قد غفوت فلم أشأ أن أوقظك ولكنني ما إن رأيت علامات ضيق تعتري وجهكَ بعد أن فتحت عينيك حتى أردت أن أجلس إلى جوارك. فأنا من دعاك لمرافقتنا وذلك يشعرني بالتزام نحوك. وأنا أعدك أن تتبدد مخاوفك بل إنني على ثقة من أنك ستكون أنت من سيدعوني لمرافقته إلى الرحلة القادمة.

ثم راحت تسألني بينما بقيت صامتا:

لماذا تبدو عيناك حمراويْن هكذا؟ هل أنت مرهق أم أن للأمر عَلاقة (بالطبطبة)؟ هل تذكر؟ أنت أخبرتني أنني فعلت ذلك من أجلك ولكنك لم تُزِد عن إخباري فحسب.

فلمَّا لم أكن أدري بماذا أجيب السيدة الجميلة ولما كنت أُخفق دائما في أن أخفي ذلك الحزن الساكن في عينيَّ حتى أذهب بريقَهما رسمت في وجهي ابتسامة عَلَّها تُنسي أمر عينيَّ الحمراوين، وكنت لا أزال عاجزا عن إجابتها عن سؤالها الذي كاد يقفز من عينيها؛ فأنا غارق في قصتي المؤلمة غير قادر على تجاوزها رغم مرور الأيام والأسابيع، ولكنني استجمعت قوايَ فشكرتها من جديد على ما أبدته من مساندة لي دون أن تدري.

فلما أوقف السائق الحافلة بشكل مفاجئ ومخيف أمام مطب اصطناعي يسبق إحدى نقاط التفتيش انزعج كلانا؛ فقد ألهانا حديثنا عن متابعة الطريق، وإذ صاحب انزعاجها صرخة نسائية ناعمة أطلقتها انتبه المرافقون لصرختها فتعالت ضحكاتهم، أما أنا فقد أخفيت وجهي بين يديَّ خجلا من ملامح فزع لا يليق أن تظهر في وجه رجل ناضج.

عند ذلك لفت السائق البدين انتباه الجميع إلى ضرورة مغادرة الحافله للتفتيش، وقد اختصني بابتسامة بلهاءَ حين صرت على مقربة من كرسي قيادته قبل أن يُعلمهم بضرورة أن يغادروا جميعا للتفتيش ثم نظر نحوي واختصني بإيماءة تودد قائلا "انت تعلم".

كان الجميع يغادرون مقاعدهم تباعا إيذانا بمغادرة الحافله إلى نقطة التفتيش فأنقذتني المغادرة من أسئلة (سارة) التي كنت أبحث عن إجابات لها في رأسي المشحون بالعراك، وكنت لا أقوى على تبادل

حديث مطول معها يخرجني من صمت أستحسنه كثيرًا في أوقات الحزن.

ثم عدنا بعد أن فحص الشرطيان أبواب الحافلة ومخازنها وكلَّ بقعة فيها. كان التوجس من كل شيء هو السمة الحاضرة في وجوه أفراد الأمن بعد مرور أيام قليلة على ذلك الحادث المفجع الذي أزهق مرتكبوه الإرهابيون أرواح أطفال وسيدات أبرياء كانوا يستقلون حافلة بينما كانوا في طريقهم للصلاة في أحد الأديرة.

عند ذلك تذكرت على الفور تلك الطفلة الصغيرة (مريم) ابنة صديقة (داليا) التي أُصيبت إصابات بليغة في ذلك الحادث وتذكرت بكائها الحار على رحيل مريمَ بعد أن أجرت لها جراحة في القلب فشلت في إنقاذ حياتها، وحضرني الألم لما استعدت تلك الذكرى وأحسست بالعجز أيضا؛ فأنا قد جئت إلى هنا كي أهرب من ذكرياتي ولكن أنّى لي أن أهرب بينما يطاردني ظل (داليا) وروحها في كل مكان وكأنها تأبى أن تغادرني أينما حللت وحيثما سافرت، وكأنها قريني الذي يسكنني ويسير أمامي وخلفي بل ويلهو من حولي يطيعني لبعض الوقت ثم يستحسن أن يعصاني ويروقه كثيرا أن يسخر مني.

هي معي دائما لا تفارقني، أعبر طريقا فتسبقني لتحتل كل بقعة فيه ثم تترك ظلالها هناك حتى إذا ماعدت من نفس الطريق وجدت تلك الظلال تتراقص تحت أشجاره فلا أنساها في ذهابي بعيدا ولا تغيب عن طريق عودتي، وما عدت قادرا على استعادتها من جديد.

(2)

أُحِبُك ..

أسمع رنينها بصوتِك في آذاني فأذوب عشقا

وأنا أيضا أُحِبُك

ولكنني لست راغبة في أن أستمر يوما آخر في تلك العلاقة المضطربة التي تجمعنا؛ فلقد أصبحت عاجزة عن إيقاف هذا الارتباك وذاك التوتر الذي يصيبك ويصيبني كلما انشغلت عنكَ لبعض الوقت ولم أعد قادرة على تحمل شكوكك واندفاعك بل وسخريتك من أسبابي كلما غبت لساعات أو أيام.

وكيف لي أن أقوى على تحمل مقابلتَكَ لي بوجه عبوس كلما دنوت منك وكلما صمتُّ عن إجابة أسئلتك الساذجة التي تسألني وتصر على أن أجيبك عنها؟! لقد غيَّبت إحساسي بالأمان ومَلَئْتَ قلبي بالخوف حتى صرتُ أبحث في كل كلمة أريد أن أنطقها قبل أن أنطقها وأصبحت أفكر طويلا إن أردت أن أكتب لك وغدوت أتردد قبل أن أختار أيَّ طريق أدع وأيَّ درب أَسِلُكُ، أيَّ خيار أنتقي وأيَّ خيار أترك! تبدو راغبا في أن تستبيح مَسَاحتي الخاصة و تَسْلُبَنِي حريتي ولكنك واهم ..فهذا لن يكون.

ربما من الأفضل لكلينا أن نُبقي مشاعرنا جانبا أو نُودِعَها قبرا فخما نزوره عندما تُقبل الأعياد وعندما تحين مواسم الزهور أو عندما يَزْفِرُ نُوبِيٌّ عابر في ناي حزين بالقرب من مشهده.

ومن يدري! فربما تجمع الأقدار ثلاثتهم جميعا في نهار يوم خريفي عاصف وكئيب فتبعثر الرياح رفات ذلك الحب المشوه الذي عشناه ثم بددناه وأغرقناه في تفاصيل لا قيمة لها ولا معنى.

حب أضعته أنت بكبريائك وطفولتك، أما أنا فلن يسلبني الحب حريتي ولن يُهْدِرَني قدسية أسراري.

والآن.. انظر جيدا إلى تلك الشعيرات البيضاء المبعثرة في لحيتك السوداء، إنك لم تعد طفلا كما ترى.

كانت كلماتها تلك التي ألقتها في وجهي مؤلمة وقاسية ولقد أصابت قلبي في مقتل وأيقظتنى على حقيقة ذلك الحب الموحش الذي قهرني، وكنا قد شيدنا له مبنىً خياليا رائع الألوان وأقمنا حوله جنانًا خضراء تحيطها أشجار البَنَفْسَج وجعلناه معبدنا وقِبْلَتَنا وقِبْلَةَ العابدين والعاشقين وواحة الفارّين من الممالك المُسْتَبِدَّةِ التي حَرَّمَ ملوكُها العشق واستأثروا وحدَهم بالجميلات من النساء.

فلما استفقت على الوهم المراوغ أدركت كم استغرقني الخيال وكيف أنني كنت أسعي خلف وهم كاذب كنت أظنه حبا عظيما وكنت أظن غموضَك جاذبا و كنت أظنك قد أَوْدَعْتِ أسرارك قدس الأقداس حيث اعتدنا أن نحفظ عهودنا التي تعاهدنا هناك.

لكن غموضك وأسرارك قد تحولوا إلى مجهول مخيف أشعل نار الغيرة في قلبي فانتفت الراحة و أُرْهِبَت السكينةُ وغادر قطار الأمان بلا عودة.

وبعد أن شُيّعَت البهجة إلى مثواها الأخير انطفأ بريق كان يسطع في أعيننا، ولم يبقَ لنا من ذلك الحب إلا اسمُه، وكثيرٌ من الذكريات المؤلمة، ونظرات غريبين إذا ما التقت أعيننا صدفةً في صباح أو

مساء، وبعضُ صورٍ تجمعنا في مناسبات عامة، ورسائلُ صماء كنا نتبادلها، ووجع وغربة مِوحِشَان وافتراق مؤلم وهجران أشد إيلاما.

ودنوتِ من الرحيل بعد ما أيقنتِ أن آلام الافتراق على شدتها أهون كثيرا من خزيِ البقاء على يسره.

فلما اختارت أن تواري ذلك الحب الثري شرعت تضع فوق ناصية مشهده قطعة مستطيلة من الرخام الأبيض الفاخر كُتب فوق سطحها الناعم اللامع بلون أسود و أُطُر زهرية:

الحب الراحل

24 march2016

6 decmper2016

كنت أنظر إليها معاتبا غير مصدق لما تقول فاحمرت وجنتاها وتوارت ابتسامة عابرة استحضرتها فحطت فوق شفتيها لكنها ما إن لامست تلك الشفاه حتى استشعرت الاغتراب فأقلعت لفورها. وقد أتت بكل ما ملكتْ من نعومة كي تكسو بها وجهها لمَّا بَدَتْ لها صدمتي من هول ما قالت لكنها لم تفلح في تبديد ذلك الصمت الذي هبط على كلينا بعد أن أعلنتْ عن موت حبها بأزمة قلبية.

فلما كانت تداعب خصلة من شعرها البنيِّ أفلت من سياقه وكأنها قد أرادت أن تغطي عينيها العسليتين لتواري أحزانهما العميقة وتداري أسىً ظاهرا على ما آلت إليه قصتنا، كانت تظن أني لا أرى ما تحاول إخفائه لكنني كنت أراها بوضوح مثلما لم أرها من قبلُ فبدت وكأنها قد جمعت كل مساوئها التي كانت تُخْفِي وصنعت منها قذيفة لهب أطلقتها في وجهي دون ترفق، ونسيت أن ذلك الوجه هو ذاته الذي عَشِقَتْ طَلَّته وهو ذاته الذي تعبدتْ عند عتبته وهامت بقسماته

وابتهلت لياليها كي تَحْضُرَ ابتسامته، ونسيت كم كانت متيمةً تفيض دموعها لَمَّا تمر يداها على جدران مقامه وكيف كانت راجيةً تسبح في نهر أنواره فلا تعود لها السكينة إلا في ساعة إجابة.

أعلنت الرحيل بينما كنت أقف على رأس مكتبها في غرفة الأطباء بالمستشفى الخاص الذي تعمل به فأصابتني بالهذيان، وبعد أن استجمعتُ قوايَ هممت بالرحيل دون أن أنطق سوي كلمات قليلة؛ فقد كنت لا أزال مذهولا غيرَ قادر على تصديق ما قالت.

أحقا ما قالت دكتور (داليا عزمي) أخصائي أمراض القلب كما تقول اللوحة المذهبة الصغيرة الموضوعه فوق سطح مكتبها؟! لا أكاد أصدق أنها قالته، ولست أدري كيف تَصَادَفَ أنها تعالج القلوب بينما تحمل في ثنايا قلبها كل تلك القسوة، أم تُراها تُدمي القلوب أولا قبل أن تشرع في علاجها؟!

سألتها في رجاء ألاّ تفسد روابطنا في لحظة اندفاع جنوني وأن تعطي الحب فرصة للنجاة من الموت، ثم غادرتها محموما، وكان أن أُصبت بالصدمة وبقيت هكذا أياما طويلة بعد ما أبدت لي من رغبتها الأكيده في الرحيل.

صرت عاجزا عن فعل شيء، فلم أعد قادرا على البقاء منزويا في حجرتي ولم أعد راغبا في البقاء في أيِّ مكان آخر.

وقد حاولت أن أغادر دوائر الصمت التي أُسْكِنَتْ في نفسي حتى حَبَسَتْ لساني وحَلَمْتُ أن أفعل شيئا مغايرا ..أي شيء، لكنني بقيت محاصَرا بأصوات تتصارع من حولي وتردد في آذاني دقاتِ زَارٍ وطقسا شيطانيا مخيفا يَعِدُنِي ساحرًا بالوَحْدَة والعجز، ثم راح يدفعني تحت وطأة سطوته ويتوعدني بمصير صنعه خصيصا من أجلي.

وعبثا حاولت أن أسير في الطرقات أو أسكن الزحام عَلَّنِي أنسى. كنت أسير كهائم أو كمجذوب لا يغادر قصته مغيب لا يدري في أيّ بقعة في الأرض يسير. فلما تشابهت الأشياء ومسخت الأماكن وهدأت الأصوات وساد الصمت وعمَّ الانتظار بدا لي وكأنَّ الناس في كل مكان قد بُعِثُوا جميعا على صورتها، كلهم صاروا "هي".

كانت تقبل بابتسام وتتضرع في خشوع، تهمس في عذوبة وتصرخ في غضب، تصمت وتتكلم، تبرق عيناها وتنطفئ ثم تدير لي ظهرها وتغادر، تبتعد حتى تختفي ولكنها قد تركت من بعثوا من جديد على صورتها فماغابت أبدا.

و إذ غدا الأحياء كلهم على صورتها لم أعد أدري أين أهرب أو أين أبقى؛ فأنا لم يخطر لي أن تصيبني بكل هذا الألم وبكل تلك المرارة دون أن يهتز لها جفن، حتى أبواب العتاب أغلقتها دون وعد وأوصدت أبواب الرحمة وكأننا ملائكة لا تخطئ.

فلما عجزت عن اجتياز ما أَلَمَّ بي من أحزان ولمَّا لم أعرف سبيلا للنوم أو اليقظة صرت كمن ضلَّ سبيل كل شيء وكأن الآلهة قد صبت اللعنات فوق رأسي حتى غيَّبت عني ابتسامتي وظللتني ببؤس دائم وحزن مقيم لا تواريهما الابتسامات المصطنعة ولا تبددهما الضحكات المبتذلة التي تطلقها الحناجر في الأجواء الصاخبة.

وبقيت طويلا لا أكاد أصدق ما أسمعتني إياه كلما تردد في أذناي، وعبثا حاولت أن أنساه أو أخفي أثره في ملامحي، فلما اسْتَوْطَنَتِ الأحزان عينيَّ وغيَّبتني عن ما يدور من حولي وعجزت عن إخفاء ما أَلَمَّ بي من وجع استسلمت لرغباتهم جميعا.

ومع مرور الأيام صرت حطاما وتحولت إلى أحدب كهل أصفر الوجه عاجز حتى عن رفع جفنيه فوق عينيه. ورغم الزحام لم يعد يؤنسني

سوى وحدتي التي تحملتني دون غضب أو استياء ودون تذمر أو كبرياء فعدت إليها وبقيت ممتنا؛ إذ بقي لي ما ألوذ به في أيام الانكسار.

خلا عالمي من الحاضر وكأنه قد تجمد عند لحظة الافتراق وخلا يومي من الفرح فلم يعد يوقظني صوتها الرقيق القادم عبر الهاتف في الصباح ولم تعد تأسرني ضحكات النساء إذا ما أطلقنها في جمع منهن؛ فأنا لا تأسرني سوى ضحكتها.

فلما لم يعد بي حاجة لأحد من الناس ولم يعد أحدهم بحاجة إليَّ صرت شخصا كئيبا منبوذا لا يجتمع من حوله أحد. لا شيء أَبْدَؤُه فيكتمل وكأن الحياة قد توقفت بي عند محطة هجرانها، وعبثا حاولت أن أُخفي عن أعين الناس ما ألم بي من يأس وإحباط وكفر بكل شيء، كفرٌ بمن أحببت وكفرٌ بالحب، فلعنت يوما عاد متسللا إلى قلبي كلص محترف جاء محمَّلا برغبة جامحة في الثأر مني؛ ربما لأنني قد أفسدت محاولاته العديدة لاسترقاق قلبي قبل أن تملكيه، وربما لأنني أبقيته بعيدا دون أن ينال نشوى استلاب ذلك القلب الذي أراد أن يستلب. وغدوت كمن سكن الوهمُ عقله وغُيِّب يقينه فاستحق خداعا إِثْرَ خداع لَمَّا سقط في فخِّ أكاذيب نَسَجَتْها بحرفة وإتقان أشهد أنها تستحق كل إعجاب.

(3)

اعتدت الغياب فلم أكن أعرف أين غبت. رسائلي بقيت أياما دون رد وصمت هاتفي حتى ظننته قد مات، فلما كنتِ تعودين فجأة كنتِ تبعثين فيَّ وفيه الحياة وكأنك تعلمين سر البعث.

وحدَكِ من كان يملك حق أن يغيب، ووحدك من كان يختار متى يعود، أما أنا فلا حق لي أن اسأل أين كنتِ. ألست أملك أن أعاتبك لغيابك؟! وكأنني بعض من ركام مهمل ملقىً في شارع مهجور ليس له أن يعترض ولا ينبغي أن تتملكه الدهشة أو يستغرب هدوءك المفرط وأسرارك اللعينة بينما تبررين غيابك دائما بالانشغال بأمر لا تفصحين عنه أبدا، فكان كل شيء وأي شيء هو في حيز تطلقين عليه "مساحتك الخاصة".

لكنَّ غيابك المتكرر لم يعد يبرره اعتذار إن اعتذرتِ ولم يعد تبريرك كافيا لتبديد حَنَقِي واستيائي، وبدا إهمالك لي وكأنه جزء من خطتك اللعينة لامتلاكي. كنت أثور وكنت أُعيد تذكيرك في كل مرة بأنني لست ضمن قائمة اهتماماتك الكثيرة وأنني لست سطرا أو اسما في ترتيب يضم أشياء أو أشخاصا آخرين.

قلت لك ذلك مرارا دون أن يبدو ذلك كشرط؛ فلا شروط في الحب، فهل تعددت مرات غيابك رغما عنك؟

مِلْتِ في أوقات كثيرة إلي التطوع بتبرير غياباتك وهدأت نفسي أحيانا لما كنت أقنع بأن عائلتك وأصدقائك واهتماماتك الكثيرة ربما

تحتاج أياما إضافية ليسعها يومك؛ فأنت تقضين وقتا طويلا بين عملك في مصنع الأدوية والمستشفى والتدريس في الجامعة والدراسة والرد على رسائل الأصدقاء ومساعدتهم وتقديم النصائح لهم أيضا، ولم أستسغ أن ينال أصدقاؤك اهتماما لم أنله. أعلم أنك تتابعين كل شيء وأي شيء بحثا عن السعادة، ولكنك أبدا لم تجدي ما تبحثين عنه إلا في لحظات قصيرة من يومك فإذا ما عُدْتِ إلى فراشك في المساء غادرتك تلك السعادة فورا.

وكنت أرى ملامح وجهك الحزين في نبرات صوتك بينما نتحادث عبر الهاتف أو نتبادل الرسائل، وكانت صفحتك على فيسبوك عامرة بالإحباط -و إن كنت تنكرين ذلك دائما- وكثيرا ما أخفقت محاولاتك في إخفاء ما تعانين من أحزان حدَّ الاكتئاب أحيانا وإن أخفيتها خلف ضحكة مخنوقة باهتة تكشفها عيناك عندما نلتقي فكنت أستشف على الفور ما تجاهدين لإخفائه.

ولكنني بقيت عاجزا عن مساندتك أمام إصرارك على إنكار ما أرى، وقد اعتدتِ أن تعودي إلى منزلك بعد يوم حافل مزدحم وحيدة بائسة متعبة تغطي ملامحها بِسَكِينَةٍ زائفة طالما أخفت في خطوطها جموحا لا يكبحه شيء.

بل إنك قد تفسدين بجموحك واندفاعك في لحظة كلَّ المعاني الجميلة إذا ما انتابتك نوبة من الغضب المفاجئ تُبَدِّلُ حالك لأسباب غير مفهومة. ورغم رومانسيتك المتوهجة وشغفك بشؤون الناس وكثرة ما تجمعين حولك من البشر فأنت لم تعرفي سوى بهجة زائفة تصنعينها أو تتصنعينها فلا تدوم طويلا حتى بدوت كمن يملأ فراغه بفراغ.

أَخْبَرْتِنِي في صباح أحد الأيام بينما كنتِ في عملك بالمستشفى عن ذلك الطبيب الذي التقيتِه بالصدفة هناك فاكتشفتِ فورا -رغم تغير

ملامحه بعد مرور السنوات- أنه كان زميلا لك في الدراسة وأنك قد ذَكَّرْتِهِ بذلك ولم تنسي أن تطلبي رقم هاتفه قبل أن يرحل عائدا لعمله في دولة خليجية.

لم أضق برواياتك التي قصصتِها لِيَ لكنني كنت أشعر دائما بأنك لا تضعين حدودا أو شروطا لاقتراب الغرباء من عالمك. أما أنا -وإن كنت لا أضيق لكونك طبيبة مرموقة- فإنني تأسرني الرغبة في أن يكون على رأس اهتماماتك.

وإذ تنازعني صراع فقسمني بين رضًا عن تلك الأوقات القليلة التي توليني فيها اهتمامك وبين غضبي لثمن أدفعه من كبريائي في أوقات تجاهلك لي حتى بدأت أستشعر الاغتراب. ثم تغلب ميلي لافتقادك عندما تغيبين حتى غَرَّبَني وفاق ذلك الخيالَ الذي أشبعني وعودا بأن ثمة حياة رائقة سنحياها سويا وأنها ستخلو حتما من المتاعب وأنها ستتسع لذلك الحب الذي يجمعنا سويا.

ولكنني بقيت أحيا مع واجس الحكمة القديمة التي تقول:

"عندما يغيب حبيبك مدعيا أن ثمة أمورًا هامة تشغله فإنه حتما يستعد للرحيل".

فأنت قد دأبت على تغيير عاداتك فلا تطلع لإيقاظي في الصباح ولا رسائل ولا مرور بصفحتي في المساء، لا مشاركة في أمر هام ولا حتى مبادلتي حديث سطحي عابر.

وإذن فقد هدأت حمَّى البدايات وغاب عنك الانبهار، وكنت أظنك تحبينني حقا. ولست أدري كيف تعشقينني حدَّ العبادة ثم يذهب ذلك العشق فجأة؟!

بدلتي رسائلك الطويلة بكلمات مقتضبة مشوهة المعنى لا دفء فيها ولا روح، و لم أفهم. حاولت مرارا أن أفهم لكن كلماتك المُثْلِجَة أطفأت لهيب حبك في قلبي وزرعت بيننا المسافات فصارت تلك المسافات أول الحاضرين أذا ما دار حديث بيننا.

ثم عدّتِ بعد غياب فسألتكِ:

هل انتهيتي مما يشغلك؟

هل طرحتي سؤلك اليومي على متابعي صفحتك؟

كنت أسخر من كوني مهمَّلا منذ الصباح، لكنك لم تفهمي ما أعني و ظننتي أنى جاد في سؤالي.

- نعم .. ما إجابتك؟
- انتظري قليلا حتى أقرأ ما كتبت
- ماذا تري من جمال حولك؟ هذا هو السؤال، أجب الآن
- بدا وكأنك قد أطلقت نوبة عناد جديدة أو هكذا فهمت

فقلت:

إذا كان بإمكانك إهمالي كل تلك الساعات فبإمكانك أيضا إهمال مبادلتي رسائل الدقائق الأخيرة من الليل. تلك الدقائق التي تغيبين فيها أحيانا فلا أعلم أين اختفيت إلا عندما ترسلين لي رسالة اعتذار في الصباح عن ذلك النوم الذي غلبك وغيَّبك فجأة.

ودعوتك إلى أن تُعيدي النظر فيما تفعلين فربما لا تتسع حياتك لوجودي فيها فأرحل؛ فليس يمكنني البقاء على الهامش كما أنني لست راغبا في أن تُبدي اهتماما مصطنعا أكره زيفه، وغدوت كمن ضاق بكل شيء ولم أعد أدري ما هي فكرتك التي ترددينها عما تسمينه "الراحة في الحب" ففقدتُ بوصلة إرضائك وإرضائي معا.

ولكم كانت تحضرني أوقات أحتاج فيها أن تكوني أكثر قربا، فلما كنت غائبة دائما كنت أستحضر صورتك، روحك وعطرك فأنت أول ما يحضرني أذا ما حضرت وآخر من أُغلق عينيَّ على صورته التي أحتفظ بها في هاتفي.

فلما لم أكن أقوى على إبقائك، ولما أخفقت في مطاردة تلك الخيالات والهواجس التي عرفت طريقها إلى عقلي كنت أعود مهزوما أصب اللعنات على من غيبك وعلى كل المقسوم غير العادل الذي كُتب لنا وعلى كل من أقام تلك الحواجز اللعينة بيننا.

وكيف لي أن أحتفظ بهدوئي في تلك اللحظات؟! أخبريني بالله -إن كنت تعلمين- كيف السبيل إلى السَّكِينَةِ؟! فأنت تعرفين أنَّ اندفاعي ما هو إلا لتوارد هواجس تسحقني وتراوحني ما بين اليأس والتمني.

وقد عجزت عن تجسيد خيالي وتحويله إلى قلب نابض لإنسان من أهل تلك الأرض، قلبٍ يمكنه البقاء إلى جوارك في كل الأوقات فبقيت مكبلا في مكاني وبقيت طليقا مبعثرا في كل مكان وكأنني ورقة مهملة تعبث بها الرياح وتتناقلها من كومة إلى كومة بينما أتصَّنع الرضا بما تفعل الرياح بي.

كنت مستسلما عاجزا لا أُبدي رغبة في مقاومة عبثية ولا أحرك ساكنا لأحتمي من عصفها، أحاول أن استنفر قوايَ عَلَّها تمكنني من المقاومة ولكن بلا جدوي.

قلتِ لي ذاتَ مساء:

إنها قراراتك المتضاربة .. تغضب ثم تضحك .. تثور ثم تعود لتبتسم

- تعني أنني...؟!

أنت هوائي. كثيرا ما كنت تملأ قلبي بالخوف في تقلبك بين حال وحال. بددت أماني فصرت أكثر قلقا وزرعت الرهبة في نفسي فلم أعد أستشعر الراحة.

صرت غريبا ..غريبا جدا

- ولكنك تنسين شيئا هاما. بالأمس كنا عاشقيْن واليوم صرتِ تَرَيْنَنِي كأحد العابرين .. أنتِ أيضا تغيرتِ، صرتِ غريبة.. غريبة جدا.

أنت تعلم كيف يتغير حالي بين لحظة وأخرى. في تغيري أتراوح ما بين الفرح والغضب والاكتئاب؛ فلكم هي قاسية تلك الحياة. إن انشغالي بكل ما يحيطني لا يدع لي إلا القليل من الوقت للحب.

-أما أنا فلم أتبدل. بقيت كما كنت دائما أحتفظ بثوابت لا تتغير. أحبك بينما أحبك وأحبك بينما أفعل أي شيء آخر. لم أفلح أبدا في رؤية أمر لا تكونين على رأسه، ولم يراودني خيال دون أن تكوني هناك ترقبين ما أفعل. فماذا عساني أن أفعل حيال تلك المرأة التي حضرت دون إرادة مني؟! وكيف لي أن أوقف ذلك الرجل الذي يبدو متيما بك عند حده؟! أعلم أنني دائم التغير أو كما تقولين لي دائما "انت لا تثبت على هوى" وذلك يشعرك بالخوف. ولكنك تعلمين أن قلبي لا يري امرأة سواك. أحبك، وهواك كل ما أملك من الهوي، لم أعمد يوما إلى إثارة غيرتك، لم أخنك ولم أكذب ولم أخدعك، فتلك عهودي التي صنت، فأي هوىً غير ذاك الهوى تبتغين؟! أيّ هوىً آخر يمكن أن يعني أمرًا هاما لامرأة.. أيِّ امرأة؟!

لكم احتجت إلى رسائلك المُطَمْئِنَةِ في كثير من الأوقات التي غبتِ فيها. لم أنتظر إجابات منطقية أبدا، لكنك لم تفهمي ذلك على الإطلاق أو ربما فهمتِه ولكنك أردتِ تعذيبي؛ فكانت إثارة غيرتي هي حيلتك

القديمة كي تبقيني دوما على مقربة منك ولكنك قد قتلتِ الأشياء الجميلة بِحِيَلِكِ تلك.

كنتِ تخططين كل شيء، أما أنا فقد تركت مشاعري لطبيعتها كإنسان بدائي ارتضى أن يأوي إلى كهف في الصحراء متحصنا من عصف الرياح مستعيذا من قدوم الأشباح في أيام لا تغيب فيها الظلمة.

فهل أرحل إذن؟

بإمكانك البقاء أحيانا وربما كان من الأفضل أن ترحل... لست أدري! ..ابقَ أو ارحل أحيانا.. لكم هي قاسية حياتنا.. كثيرًا ما تراوحني بين الغضب والفرح والاكتئاب!

-وهكذا يتحول الودعاء أو من يدَّعون الوداعة إلى قساة. لكنك محقة، وأنا أفهم ذلك ..أحيانا.

(4)

كنت أسير متململا إلى جوار (سارة) بينما يسبقنا الآخرون بأمتار قليلة وقد ظلت المسافات بيننا وبينهم تتباعد شيئا فشيئا حتى اضطروا في النهاية إلى الجلوس فوق تبة من الرمال في انتظار اقترابنا. ذلك الاقتراب الذي طال أوانه؛ فقد كنت أنا و(سارة) منهكيْن من السير لمسافة طويلة فغلب التباطؤ خطواتنا رغما عنا.

وقد حاولتْ أن تتماسك وتبدي صلابة وجلدًا كي تُخفي أمارات تعبها لكنها فجأة قبضت بيدها على بقعة في ظهرها فبدا ما كانت تحاول إخفاءه من ألم في وجهها لما لم تعد قادرة على تحمله. أما أنا فكنت أزداد تماسكا لَمَّا أراها تواصل المسير رغم معاناتها كي لا يسخر مني الآخرون.

وإذ أدركنا مكانهم عند تبة رملية سقطنا من التعب، وقد أردنا أن نستريح قليلا قبل أن نعود أدارجنا إلى المعسكر/الكامب الذي هو عبارة عن مجموعة من الخيام المظللة بالقش، والتي يقيم جوانب بعض منها جريد النخيل بينما بنيت جدران بعضها الآخر من الطوب، وقد غُطِّيت سقوفها جميعا بأعواد من الجريد والقش، أما أرضيتها فقد فُرِشت بالرمال الناعمة.

فلما وجدت الشاطئ الرائع الذي أعشقه محاذيا لصف الخيام هدأت نفسي قليلا فأستلقيت فوق أحد الكراسي الخشبية المنتشرة

أمام الخيام أُنفذ عينيَّ في أعماق البحر وكأنني أغوص إلى منتهاه أملا في أن انشغل عن "الطبيبة" بجمال يثير شجونا أخرى.

ولما كانت النسمات النقية وأصوات الطيور هي كل ما ينطق بالحياة من حولي فقد غرقت في سكينة حتى سافرت في نوم عميق لم أعرف عدد ساعاته.

ثم استقيظت من نومي على أصوات مجموعة مرافقيَّ وكانوا ربما يعمدون لإيقاظي وقد هتف أحدهم:

-هيا بنا الي الجبل!

ثم اقترب آخرُ مني وابتسم في وجهي قبل أن يدعوني إلى أن أكون في صحبتهم. فنهضت ثم نظرت إليه مستفسرا لكنه لم يتركني في تساؤلي لوقت طويل قبل أن يخبرني بأن هناك تسعة من الجبال الصالحة للتسلق وأنني سوف أرى بنفسي كيف أن التسلق آمن إلى حد كبير.

و لكي يزيد من اطمئناني قال:

- انظر ها هي (سارة) قد أقبلت.

فلما رأتني أسرعت نحوي في سعادة ثم نظرت إليَّ في حيرة لما رأت عينيَّ توحي بأني لم أستفق من نومي بعد. رأيت أن غفوتي على الكرسيّ الخشبيّ في هذا الفضاء لاربع ساعات كاملة كما أخبرتني ربما أثار استغرابها وظننت أنها ربما تدرك أن الأمر لا يتعلق بمخاوف تنتابني وإنما هو تردد وانطواء يصيب من هم مثلي من المهزومين.

اقتربت من الشاطئ فغسلت وجهي بمائه الدافئ ثم دَلَفْتُ إلى باب خيمتي كي أستبدل ملابسي قبل أن أنطلق معهم إلى حيث أرادوا. كنا نصعد الجبل فوق أحجار نُقش فوق سطحها أقدام آلاف من البشر الذين وَطِئُوها من قبلُ فبدت باهتة الألوان -وإن كانت تنبض بحياة

من اتخذوها طريقا للصعود- وكانت دافئة حتى ظننت أن لها قلوبا ترق اعمه كجسد أربعينية اختارت أن تبدو مستسلمه رغم ما تخفيه من حكايات ...

على أنني لم أشعر بإثارة أو متعة في ذلك الصعود، وقد حضرني لبعض الوقت ذكرى تسلقي لبعض من درجات الهرم الأكبر قبل أعوام كثيرة ولم تكن تثيرني تلك الذكرى أيضا.

كانت سارة -التي تجاورني دائما- لا تزال تشق على جسدها وكأنها تعاقبه، لكنها بقيت راغبة دائما في أن تسألني سؤالا قرأتُه في عينيها منذ تجاورنا في مقعدين بالحافلة وبقيت قادرا على تجاهل إجابته إلى حينٍ.

ثم انقضى وقت النهار وحلَّ المساء فأردت أن أنام لبعض الوقت لكن (داليا) وذكراها قد حالتا بيني و بين النوم. فلما انتصف الليل أطفئت أنوار المُوَلِّد الصغير كما هي العادة هنا، وقد أظلمت الخيام وصارت أصوات الساهرين بالخارج أكثر وضوحا، فنهضت وهممت بأن أغادر خيمتي فلما فتحت بابها رأيت النجوم اللامعة وقمرًا صغيرًا ينتظرونني وقد أَضَاءُوا جميعهم الأرجاء.

ورأيت الجمع وقد أشعلوا نيرانًا وضعوا فوقها إبريقا من الشاي فلما آنستها بَعَثَتْ الدفء في أطرافي الباردة وكنت أستمع إلى صوت غليان القهوة التي وُضعت كنكتها في طرف النيران حتى فاحت رائحتها وكان صوت غليانها يتمازج مع صوت أم كلثوم القادم من هاتف سارة فأذاباني عشقا وقد أحسَّتْ برغبتي في شرب بعض من القهوة فصبت لي كنكتها في رضًا فشربتها وقد كان مذاقها خياليا.

فلما كانت عيناها القريبة من مجلسي دائما ما زالتا تصران أن تسألني عما حدث في ذلك اليوم. وبينما كنت أعيد كنكة القهوة التي

أعددتُها لها إلى طرف النيران من جديد بادرتني نسائم الحزن حتى ظللتني بالضعف رغما عني فغدوت أكثر ميلا إلى الاستسلام لإرادتها فأردت أن أجيبها عن سؤالها حتى قبل أن تسأله.

قلتُ:

- كنت أمر بلحظات عصيبة وقد فقدت شيئا هاما أو قولي إنه شيء لا يقدر بثمن، فلما دعوتِني ألاَّ أحزن ولما أخبرتِني أنَّ كثيرا من الأشياء الجميلة و كثيرا من الرائعين لم نلتقِ بهم بعد، خففتي بعضا من آلامي التي كادت تقتلني.

أهذا كل شيء؟ أعلم أنك تُخفي سرا لا تبوح به، ربما لو أطلقته من داخلك لتجاوزت وجعه. أعلم كذلك أنك جدير بالثقة، ربما لا أعرفك بما يكفي لأثق بك ولكنها حاستي التي لا تخطئ، أخبرتْني بذلك وأظنها على صواب فيما ذهبت إليه.

والآن دعني أُسِرُّ لك بسر. في اليوم الذي كنت تعاني هجران حبيبتك كنت أعاني هجران حبيبي أيضا. لست أدري كم استغرق حبك لها... أعواما أو ربما أشهر أو أسابيع، ولست أدري لماذا افترقتما، ولكني لا أستغرب الفراق لأي سبب؛ فلقد فارقني هو أيضا بعد سنوات دون أن أفعل ما يستحق فراقه؛ ربما كانت غيرته القاتلة وشجارنا الدائم هما ما فرقانا.

عند ذلك أُضِئت عيناها وتلألأت فيهما دمعتان، فلما سقطتا بدت عيناها شفافتين فتراقص في قُرَّتَيْهما الملونتين انعكاس لبعض النار التي كنا نجلس حولها، فقربت فنجان القهوة من شفتيها لتسدل جفنيْها وكأنها قد أرادت أن تحجب عني مزيدا من دموعها المتساقطة، فنهضت واقفا وافتعلت الانشغال بإحضار بعضا من الأخشاب الصغيرة عوضا عن ما أحرقته النيران حتى أُعفيها من مشاعر الخجل الذي بدا على

وجهها. ثم عدت فوضعت قطع الأخشاب الصغيرة في النار المشتعلة وسرت خطوات نحو الشاطئ حتى وجدتُني أقترب من بعضٍ من وقفوا بمحازاته دون قصد. فلما أقبلوا نحوي صرنا جميعا نتبادل حديثا لم أسمعه و لم أهتم بتفاصيله.

أَمَا وقد غدوتُ أتأمل في ذاكرتي عينَيْ سارة الدامعتين فقد كانت تحضرني صور أخرى لعينيْها. إحداها فيما كانت تضحك وأخرى وقت أن كان يغلب عليها التعب وأخيرة رأيتها منذ لحظات وقد بدت كمن آثر التبرأ من أن تكون سببا لافتراقها عن من تحب .. أو هكذا ظننت. فهل كانت سارة تهوى تلك اللعبة القديمة ذاتها إثارةَ الغيرة لإشعال وَلَهِ حبيبها. أم انها كانت حقا بتلك البراءة التي أظهرتها؟! وقفت بمفردي غير بعيد قرب الشاطئ أنظر نحو ضوء عكسه القمر الصغير فوق صفحة ماء البحر ثم رفعت وجهي إلى السماء أنظر نحو ذلك القمر الذي تعشقه داليا.

ثم قلت لها صامتا وكأنها تسمع:

لم تكوني بتلك البراءة التي كنت تُبْدِين: كنت مسكونة بالشكوك منذ اليوم الأول. ولكم سعيتِ جاهدة للاقتراب مني. عرفتك قبل عام غير أنني لا أتذكر أنني قد ألقيت لك بالا أو أنَّ شيئا ما قد جذبني نحوك. وقد رأيتك وقتها امرأة عادية.

بل إنني أتذكر جيدا يوم أن جمعنا لقاء عابر وكنتِ تبادلينني إيماءة تحية ومجاملة ترحيب لم يكونا يعنيان لي شيئا هاما. كنا كجارين أو زميلين أو مريض وطبيبة أو حتى اثنين من البشر قد اعتادا أن يرى كل منهما الآخر في لقاءات عابرة وعلى فترات متباعدة.

أذكر أنني قد اعتدت كثيرا أن التقي ماسح الأحذية. ذلك الرجل الخمسيني الطيب الذي لا تفارق الابتسامة وجهه. فلما كانت الصدفة

قد جعلت من لقائي به أمرا مكررا فقد صار تبادل التحية بيننا أمرا معتادا.

كان ينظر إلى مُحَيَّايَ لبرهة قبل أن تتحول عيناه فورا لينظر إلى حذائي. ولسوء حظه أنني كثيرا ما كنت أضع أحذية قماشية في قدميَّ، فكان يصاب بالإحباط عندما ينظر على استحياء إلى حذائي و كان يجاهد كي يُخفي استياءه من ارتدائي ذلك النوع من الأحذية التي لا يمكن طلاؤها خلف ابتسامة باهتة.

كنا هكذا، يتصادف أن نلتقي مرة أو مرتين خلال أشهر طويلة وقد لا نلتقي لأشهر أطول دون أن يَعني تلاقينا أو غيابنا شيئا هاما بالنسبة لي و لها. وكدت أصدق أنني لم أَعْنِ لها أكثر مما عَنِيتُ لماسح الأحذية، لولا لمحة من إعجاب رأيتها كانت تخفيها خلف موجات متلاحقة من التجاهل وقد برعت في ادعائها حتى أوشكت أن أصدقها.

فلما كنت أتساءل: هل أعجب تلك المرأة؟! كانت المشاعر المختلطة التي ترسمها في وجهها تفلح أحيانا في إقناعي بأنها لا تحمل لي ذلك الإعجاب الذي تخيلت، ولكنها كثيرا ما أخفقت رغما عنها في إقناعي بأن لا شيء هناك.

أنا لم أكن مهتما أبدا بما تُواري أو تُبدي، كنت أتجاوزه دون أن أشعر بأنه شيء يستحق الاهتمام. لم تكن مشاعر الحب قد مستني أواستغرقتني لثوانٍ، وكنت أومئ لها برأسي محييا إذا ما تصادف يوما والتقيتها دون أن يبقى في ذاكرتي ما أستعيد من هذا اللقاء.

ولأننا نصنع أزماتنا بأيدينا فنقرر الاقتراب من ما نظنه لعبة نلهو بها لبعض الوقت مملوئين بظن كاذب، يهمنا معرفة أنَّ بإمكاننا المغادرة متى نشاء.

نحول حياتنا جحيما نسكنه ثم نعجز عن إدراك طرائق الخلاص من هذا الجحيم بعد أن نكون قد غرقنا في حب تُقنا إليه وتركناه ينسج حكاياتنا دون أن نختار أيا منها، لم نختر بداياتها ولا نهاياتها أو كيف ستجري بنا لياليها وأيامها، وهل ستطحننا برحىً حجرية دون رحمة أم ستفلتنا من بين راحتيها سالمين!

فلما مرت الأيام ازددت تعلقا بتلك اللعبة. كانت روحها تتقطر بقوة في داخلي حتى فشلتُ في الابتعاد أو النسيان. كانت أكثر ولعا وارتباطا وتعلقا بي، وكانت تنتظر حضوري لأراها للحظات. فإذا ما حضرت تقترب مني حتى تكاد تلاصقني وكنت أبتعد قليلا لمَّا كان المارة يجوبون المكان.

رأت في الاقتراب مني أمرا عاديا ورأيت دائما أنه من غير اللائق أن يرمقها أحدهم بنظرة لا تليق، وقد كنت أتماسك بينما كانت هي غارقة في عشقي حد الذوبان، ذلك قبل أن أذوب فيها عشقا حتى كدت أموت لما هجرتني.

ثم ابتعدتْ لأسباب لم أعرفها ولم أكن أصدقها، وقد تعلمت أن ادعاء الانشغال هو مقدمة الافتراق. لم أدرِ أبدا سر تغيبها عني طوال الوقت على غير ما اعتدنا.هكذا فجأه من دون أسباب بدا وكأنها تدير مشاعرها وتدبر أمرا -وإن أنكرت ذلك على الدوام- بل إنها -وإمعانا- في ادعاء الوداعة كانت تسألني أذا ما كنت أدير أنا علاقتنا.

أَمَا وقد اعتدت أن أترك الأشياء لطبيعتها، فلم أكن ساعيا لتقييد حريتها أبدا؛ فأنا أعشق المرأة القوية لا المستكينة، وإن تصادف في كثير من الأحيان وكانت تلك المرأة القوية غير جميلة أو رائعة الجمال.

قبل أن أحبها كنت أراها امرأة عادية؛ فهي قصيرة جدا ونحيفة إلى حد كبير، ولكنني عشقت روحها وصارت قسماتها مقاييس جمال كل امرأة.

وتلاقت روحانا فامتزجتا فصرت أراها أجمل النساء، وأدركت كيف يُجَمِّل العشق ما تراه الأعين، فلم أعد أستغرب أن تهوى امرأة جميلةٌ رجلا قبيح الطَّلَّة.

وإذ غاب العشق عن القلوب فقد استمرأ الناس أن يَتَنَدَّرُوا عندما يرون رجلا وسيما يعشق كرة من اللحم تكسو عظاما معوجة لامرأة يُثْقِلُها حَمْلُ نهديها المتدلِّيَيْن، فلما كنت أرى تلك المرأة الممتلئة بأعين رجلها المحب أُوقن أنها لابد تمتلك روحا وجاذبية لم يرها في امرأة أخرى.

كنتِ لا تجيدين اختيار ملابسك لسبب لم أفهمه، على الرغم من أنك تنتمين لعائلة ثرية وتملكين دخلا جيدا، وكان ذلك يثير تساؤلاتي واستغرابي دائما، وقد ظننت اختيارك لارتداء ملابس واسعة إنما ينبع من فضيلة لا أعرفها.

فلما تواعدنا فالتقينا وكنا معا نقضي ساعات المساء متقاربيْن في مقاعدنا، ولم نكن نتبادل حديثا مطولا إذ قضينا معظم الوقت في متابعة العرض المسرحي، بدوتِ لي كغريبة عن كل مكان وكنت تجهلين إلى أين أصطحبك أو لماذا يجب أن أتركك لثوانٍ! كرهتِ أن أتركك لأية أسباب، ثم بدتْ لك تجربة ركوب المترو غريبة ومثيرة وإن لم نخترها على سبيل الترفيه؛ فقد كان ركوب المترو سبيلنا الوحيد للوصول إلى المسرح في توقيت يسبق بداية العرض ولم تكن مواصلة الطريق بالسيارة فكرة جيدة بعد أن عَمَّ الزحام كل مكان.

كانت فكرة ركوب المترو -بناءً على نصيحة صديقتي مدير المسرح الذي كنا نقصده- وليدةَ اللحظة، وقد أشارت لي بتلك الفكرة لما هاتفتها مستفسرا عن موعد بداية العرض تحديدا. فلما أكدت لي أنه سوف يبدأ في تمام السابعة، ولما كان كل ما تبقى لنا من وقت للوصول إلى المسرح لا يتجاوز العشرين دقيقة، حزمنا أمرنا وقررت أن أترك سيارتي على مقربة من محطة مترو مصر الجديدة الأقرب إلينا.

أسرعنا الخطى إلى رصيف المترو، وبينما كنا نصعد السلم الكهربائي اختل توازني فكدت أسقط، لكنك أسرعت بالاقتراب مني فاستندت إليك ونجوت من السقوط.

وصلنا في الموعد، وكانت تلك الصديقة قد حجزت لنا مقعدين متجاورين في الصفوف إلى اليسار حيث أُفَضِّلُ الجلوس دائما، فلما انتهي العرض سألتكِ:

هل أعجبك العرض المسرحي؟ أعلم كم تحبين الروايات الأسطورية ورأيت انك قد احببت ذلك الرجل الطيب ذو اللحية البيضاء، وأسرك براعة ديكور سفينته التي شيد لينقذ المحبين من براثن أخيه سافك الدماء باسم الرب. أما أنا فقد أعجبني الكاهن أكثر؛ أحب ذلك الرجل وأصدقه حتى وإن كان يؤدي دورا خياليا في مسرحية مستهلكة الفكرة.

قالت لي بعد انتهاء العرض .. أعشق ضحكتكَ!

لم أكن أنا معجبا بتلك الضحكة الباردة التي أُطلقها حين يكون هناك ما يستدعي الضحك، وربما يكون ذلك ما أعجبكِ فيها.. أعجبك برودها.

دعوتك إلى فنجان من القهوة لكنك أردتِ شايًا ثم سألتك دون أن أعمد إلى تجريح: لماذا تفضلين ارتداء ملابس متسعة بينما ستكونين أكثر بهاءً لو أنك تخليتِ عن ذلك النوع من الملابس التي

تُخفي أنوثتك واستبدلتِها بملابس أخرى أكثر تحررا؟! لا أقول ضيقة بل أقول أقل اتساعا.

كنت جادا فيما أقول، وإن عمدت أن أقوله بلطف يليق برقتك. لم أقصد تجريحا قدر ما أردت أن تَبْدِين رائعة، وظننتك ستدركين صدق نواياي. ولم أكن أدري أنك ستتأثرين جدا بما قلت، بل وستختزنينه مثلما اعتدت أن تختزني أخطائي فلا تغفريها ولا تتسامحين أبدا تجاه أيٍّ منها، وإن أبديتِ في ذلك الوقت عكس ما كنت تسرين في نفسك.

فلما جاء اليوم الذي أَرِيْتِني فيه ما لم أكن أراه وأَفْهَمْتِني ما لم أكن أفهم، كنتِ مستمرة في ادّعاء الطيبة، لكنك أبدا لم تكوني طيبة!

مراتٍ أخبرتِني – لم أكن أدري أكان ادعاء أيضا أم حقيقة! – أنك تواجهين مشكلات صعبة لم تفصحي عنها كالعادة، وكيف لي أن أعلم وأنت لم تُشْرِكِينِي يوما فيما تفعلين! كنتِ تَعُدِّين كلَّ ما يجري في حياتك سرا عظيما لا ينبغي البوح به، أما أنا فلم أكن أملك إلا أن أصدق كل ما تقولين.

حاولت مرارا أن أساندك ولكنك أبدا لم تعودي تبوحين بشيء منذ بُحْتِ لي بأعظم أسرارك في البداية. أما الآن فأنا أتشكك في أنَّ ما أخبرتِني به كان حقيقيا، وصرت أراه نسجا محكما لقصة من خيالك.

سألتك إن كنت لا تزالين تثقين بي، وكنت أراني وكأني أحادث نفسي عندما أُسِرُّ إليك بسر، وكنت تؤكدين على ثقتك بي فتنهرينني مستنكرة: أتسألني في ذلك أيضا؟ أنت تعلم، فلماذا تسأل؟!

-أنا لا أملك إلا أن أسألك؛ فأنتِ لا تقولين شيئا وليس ثمة أصدقاء يعلمون حكايتنا ولا مقربون يشاركوننا في أي مما يجمعنا حتى

أسأل أحدهم. كنتِ تخفين كل شيء وكأنه سر عسكريٌّ، وقد مللت إخفاءَك كل التفاصيل صغيرها وكبيرها.

لكنني ما لبثت أن أيقنت بأن ذلك هو أنتِ، كنت تسمينها "مِسَاحَتك الخاصة" فلم ترغبي يوما في إخباري عما يدور برأسك أو ما يجري من حولك، ولم يكن غريبا أن أستشعر غرابة ما تفعلين.

تملكتني الدهشة والتعجب أياما، ولم أُفلح أبدا في فهم حقيقة ما يجري، ومع مرور الأيام صرت غريبا عنك تماما وعندها تجاوزت حدود الدهشة إلي شواطئ الاستنكار وتجاوز استيائي حد الاستغراب. بدأت رحلة النهاية دون أن أعي أنها قد بدأت بعد ما تحولت إلى تمثال بلا مشاعر لا يعبأ كثيرا لاهتمامي بنصبه في أحد الميادين الكبرى.

وخشيت أنني كنت أبعثر مشاعري عند أقدامك فلم تكوني تَرَيْنَهَا إذ آثَرْتِ أن تَبْقَيْ مسلَّطَةَ العينين نحو السماء حتى لا يحملك شيء على الانحناء.

وإذ سمعتهم يقولون أنَّ الإفراط في المشاعر يُذهبها ولم أكن أُلْقِي بالا لما يقولون، أدركت أخيرا كم كنت مخطئا، وكيف كان محتما أن أدفع ثمنا لبلاهتي المخزية.

في أحد الأيام -وكان نهاية الأسبوع- سألتني أن أنتظرها بجوار أحد الأماكن القريبة بعد انتهاء وقت عملها. كانت تغادر المستشفى عند الحاديةَ عَشْرَةَ مساءً، ولم يكن هناك متسع من الوقت نقضيه معا، بالكاد كان بإمكاننا أن نقضي نصف ساعة قبل أن تضطر إلى العودة إلى منزلها.

قالت: انتظرني، أريد أن أصطحبك لبعض الوقت.

انتظرتها فأتت فورا، وحملتني بسيارتها بعيدا عن ذلك الشارع المزدحم بالناس، فلما كان يوم خميس -وهو يوم يهوى فيه الكثيرون التسكع في الطرقات بلا هدف، وارتياد المقاهي والمطاعم قتلا لفراغ يعانونه- وإذ قتلنا الاشتياق تشابكت يدانا ثم حملت يديَّ إلى شفتيها تقبلها. أما أنا فقد احتضنت يدها وكأني أحتضنها ورحت أقبلها بدفءِ ما أحمله لها من عشق لم أملك أن أستوقفه أو أُمهله ولم تملك كبحه، فكنا نطلق تأوهات مكتومة تكاد تهجر قيودها وتحطمها.

ولكنَّ الناس كانوا في كل مكان حتى أنهم قد شَغَلُوا أيضا تلك الشوارع التي خفتت فيها الأضواء والتي اخترت أن نسلكها أملا في أن تسنح لنا فرصة في الاقتراب فنطفأ لهيب شفاهنا التي توقدت.

لكنَّ الوقت كان قصيرا جدا فلم يمهلنا البقاء معا كما تمنينا. فلما جاوزت الساعة الحاديةَ عَشْرَةَ والنصف كان لزاما أن تعود إلى منزلها كالمعتاد.

أعلم يقينا أنها أرادت البقاء ربما حتى الصباح، وأردت أنا ذلك أيضا لكننا سرعان ما وجدنا أنفسنا على مقربة من منزلي. وإذ حانت لحظة رحيلها قَرَّبْنَا وجهيْنا وتبادلنا قبلة وداع كادت تحرقنا.

ثم غادرتُها وغدوت أصب اللعنات على لحظات الافتراق التي طالما قَدَّرَتْ أن نبتعد كلما اقتربنا.

وبعد مرور أسبوعين على لقاءنا الأخير كان ما يربطنا خلالها تواصل لا يتعدى رسائل الاطمئنان المقتضبة الباردة على غير ما ألفنا:

- صباح الخير

صباحك خيرا

- كيف كانت ليلتك؟ لم ترسلي لي رسائل مساء أمسٍ، هل نمتِ مبكرا جدا؟

كثيرا ما كنت تجيبين أسئلتي بأسئلة. أعلم كم تكره الإجابات، ولذا كان حديثنا في أغلب أوقات أيامنا الأخيرة حديثا باردا آليا.

أسألها: هل عدت الي منزلك مبكرا؟ فتجيبني باقتضاب "نعم"، ثم رأيتها تبتعد يوما بعد آخر لكنني لم أكن أملك أن أَقْرُبَها بعد أن صنعت غربتنا بإدمان الصمت.

كنت أخبرها في رسائلي أننا يوما ما لن نجد ما نقولُ بعد أن بَدَوْنا وكأننا قد أودعنا مشاعرنا داخل غرفة مغلقة شديدة الظلام ثم رحنا نطلب إليها ببلاهة أن تخرج من الغرفة لتصف لنا ما كانت تراه من حولها.

أتيتها يوما أسألها:

-ألا زلتِ تحبينني؟

كنت أعاني في سابق الأيام غيابها غير المفهوم أو المبرر.

فأجابتني بثقة: نعم، أحبكَ.

غادرتُها وقد تسارعت دقات قلبي إعياءً لا فرحا، ثم أسرعت إلى فراشي أحاول أن أهدأ، لكني فشلت في أن أُبطأ دقات قلبي قبل أن تأتيني رسالة منها في تلك اللحظة تلوم فيها سؤالي عمّا إذا كنت لا تزالين تحبينني.

قالت: إياك أن تظن أنني سأتوقف يوما عن حبك أو أنني قد أضيق برؤياك في أي وقت.. هذا لن يحدث أبدا ..أبدا .. أبدا.

هكذا كتبت لي مؤكدة على ما تُكِنُّ في قلبها من حب نحوي، لكنَّ ذلك لم يفلح في إعادة نبضات قلبي للانتظام من جديد.

أخبرتها كيف كنت أشعر وكيف هو حال نبضاتي المهرولة عدوا، فاستشعرتُ الفزع في كلماتها التي كتبتها لي في رسائل عبر الهاتف، وإن لم تستمر في ذلك طويلا.

أرسلت لي صورة بها خمسة مفاتيح تعددت أشكالها وأحجامها وطلبت مني أن أختار إحداها، فاخترت المفتاح الذي يعلوه رقم أربعَ، فسألتني مداعبة: ولماذا اخترت هذا المفتاح تحديدا؟! إنه يبدو كمفتاح خزانة الملابس.

لم تنتظر إجابتي وكأنها قد انتبهت إلى أنَّ الأمر جاد ولم تشأ أن تزيد متاعبي فأرسلت لي صورة المفتاح الذي يعلوه رقم "خمس" وأخبرتني أنَّ ذاك هو اختيارها.

سألتها: ولماذا؟

فأجابتني بنبرة حالمة: إنه مفتاح المخبأ السريّ في القصر البعيد، لست أدري أيّ قصر أو أين هو ولكني أحببته دون أن أراه، أحببته وكفى.

كانت تلك هي حيلتها لتأخذ عقلي بعيدا عما يشغله فهي طبيبتي التي تعرف جيدا أني أعاني التفكير المفرط الذي يلازمني طوال الوقت حتى وأنا نائم. نصحتني أن أتناول قرصا من دواء مهدئ كانت قد أعطتني إياه قبل أيام.

نظرت إلى الطاولة القريبة من سريري، وكنت قد وضعت ذلك العقار على مقربة مني وكأنني كنت أنتظر قرارها بأن أتناول أحد أقراصه.

- ولكن أطفئ الأنوار في غرفتك أولًا.

كانت تلك جملتنا التي اعتدنا تبادلها كلَّ ليلة قبل أن تسكن أحضاني وقبل أن أسكن أنا في حنايا صدرها فأتحسس شفتيها وأقبل أطرافها ثم نغمض أعيننا ونسافر في حُلْم طويل. ثم أمرتني في حُنُوٍّ أن أتوقف عن التفكير في أي شيء لخمس دقائق.

جاهدت لأفعل ما طلبت وأردات أن أضع رأسي فوق ساقيها الممددتين، ثم بدأت تداعب شعري بأصابعها علني أغفو.

كم عشقت أن أبقي إلى جوارها دائما لكنني شعرت بالخجل فاعتذرت عما سببت لها من إزعاج، وأشفقت عليها من التأثر بما كنت أعاني من القلق، وخشيت أنني ربما أَذهبت النوم من عينيها بينما كانت عائدة لتوها من المستشفى وهي لابد متعبة.

كنت أعلم جيدا أن جسدها الرقيق يُصاب بالإرهاق في هذا الوقت من الليل فلا تستطيع السهر بعد الثانية عَشْرَةَ.

كان إحساسا غريبا بالخجل منها قد انتابني للمرة الأولي، منذ متي كنتُ أخجل أو كنتِ تخجلين إن أنا وضعت رأسي على صدرك أو ساقيك وقد اعتدنا أن نتعانق كل مساء قبل أن تختبئين في صدري وأختبأ في أحضانك فننام حتى الصباح.

قلتِ: أنا أحبكَ.. لم يغيرني شيء، ثم احْتَضَنْتِنِي حتى غرقت في النوم، وكان دفئك ساحرا وكان تأثير العقار سحريا وقد غيبتُماني كلاكما عن الدنيا حتى ظهيرة اليوم التالي.

فلما استيقظتُ قرأتُ رسالتك التي أرسلت:

U look too sexy while sleeping

(5)

كثيرا ما كنت أقضي أجازتي الأسبوعية وحيدا من دونكِ فقد كنت تتابعين دراسة الماستر. ذات يوم أخبرتِني بأن النجار سيأتي إلى منزلك لإصلاح خزانة ملابسك، كانت أعذارك منطقية ولم يساورني الشك أبدا في أنك ربما كنت تختلقينها.

لكنني تذكرت أمر ذلك النجار بعد مرور ثلاثة أشهر على تعَلُّلك بعدم القدرة على مصاحبتي في أجازة نهاية الأسبوع بسبب حضوره أيضا، وكنت على وشك أن أُذكِّرَك بأنك قد اختلقتِ ذلك العذر من قبل ولكنني آثَرْت الصمت وإن بقي في صدري وخز يؤلمني ويعيد إلى ذاكرتي قصةَ الأكاذيب التي كنت تنسجين منذ البداية.

وكنت عائدا في نهاية ذلك اليوم وقد اعتدت أن أترك سيارتي على مقربة من محطة الأتوبيس، وكنت قد أودعتها إلى جوار أحد الأرصفة ثم سرت أمتارا كي أستقل الباص الأزرق، ذلك الذي يحملني إلى وسط المدينة فيجنبني معاناة البحث عن موضع لسيارتي إذا ما اسْتَقْلَلْتُها إلى تلك البقعة المزدحمة من العاصمة.

أجلس على أحد مقاعده وأدير مؤشر الراديو في هاتفي المحمول ثم أضع سماعاتي البيضاء في أذنيَّ فتنطلق تباعا تلك الأغنيات القديمة التي أعشق الاستماع إليها ولم أكن أنسى أن أحادثك على الهاتف لأصف لكِ المشهد.

أحببت دائما أن أشعر أنك إلى جواري في كل اللحظات فلا أعاني غيابك ولا أدع مجالا لتتسرب إلى نفسك أيٌّ من الهواجس النسائية التي تُحِيل المرأة الوديعة إلى وحش مفترس.

كنت أفعل ذلك طواعية لأبعث الطمئنينة في نفسك، فأنا أعلم كم كنت بحاجة لأن أُشعرك بالأمان.

ولكن أُتُراني أطفأت أنا نار غيرتك حتى أنها ما عادت تشتعل إلا قليلا؟!

مرة واحدة أبديت لي غيرتك وكان ذلك عندما أطريت على صديقة مقربة في بعض سطوري الرومانسية التي اعتدت كتابتها فسألتِني: من تكون تلك العاشقة؟

ضحكتُ ثم قلت: اطمئني فلا حبيبة لي سواكِ.

كنت أرى غيرتك وقد قتلتك فأسالت دمك فوق سطور رسالتك ولكنك كنت تُبْدِين صلابة وقوة؛ فأنت بارعة في التماسك والمواربة وإخفاء ما يجول بخاطرك خلف ستار الاهتمام بأمر آخر.

ورغم معاناتي التأرجحَ والاهتزاز في طريق عودتي كي أكتب لك إحدى رسائلي وبينما أَتَحَيَّنُ فرصة توقف الباص الأزرق اللعين دائم التصفير كأرجوحة قديمة في أحد الأماكن إيذانا بمغادرة أحد الركاب، إلا أنني بالكاد كتبت لك أنني الآن في طريق عودتي، وأنني افتقدتك كثيرا، وسألتك أن تنتظريني قليلا ورجوتك ألَّا تنامي قبل عودتي.

وكنت قد اعتدت أن تنامي عند الثانيةَ عَشْرَةَ ليلا وأحيانا قبل ذلك الموعد بقليل، فلما كانت قد بقيت دقائق قليلة تفصلني عن منتصف الليل كنتِ تطمئنيني بأنك تنتظرين عودتي وأنَّ عليَّ ألَّا يساورني شك في أنك ستفعلين ذلك دائما. كان وعدا ضمن وعود

كثيرة أخلفتِها دون أن أدري لماذا أخلفتِ وعودك، فلما افترقنا بقيت لا أعرف لماذا بدلتِها؟!

فلما كنت في طريق عودتي مترجلا إلى سيارتي بعد أن غادرتُ الباص الأزرق القافز لأعلى دون إرادة منه، أردت أن أكتب إليك لكنَّ الصخب كان سائدا من حولي، فلما بدت صورتك أمامي غمرتْنِي بحبك وتواردت كلمات في خيالي فَرُحْتُ أكتبها إليك.

وقد أردت أن أجمد ذلك الصخب الذي ملأ الأرجاء في ذلك الشارع العامر بالبشر والسيارات وأفواج الكلاب الضالة التي زَرَعَتْ لقبيلتها مكانا في جزيرته الخضراء فاحتلتها احتلالا. فتحت كاميرا هاتفي وقررت أن يعم السكون من حولي بإرادتي واختياري.

التقطت صورة لكل الراتعين في هذا الشارع فتجمدوا وصاروا مسلوبي الإرادة أسرى ذلك البرواز الذي وضعته حول صورتهم في هاتفي، ثم مضيت في طريقي. وبعد ثوانٍ هدأ كل شيء ولم يبق في المدى سوى سحابات صافيه تتحرك ورياح صيفية تَنْسِم وقد بدأت الأشجار المصطفة على جانبي الطريق تنبت ورودا في حضرة ملائكة هبطوا من السماء، وكان أن دارت موسيقى السيمفونية الشهيرة (شهرزاد) فتمايل الراقصون ثم ذابوا عشقا حتى انصهروا.

وكنتُ أصف لكِ المشهد وكنتِ تدوِّنين ما أصف دون أن تخبريني بأنك تكتبينه، وأريتِني ما دونتِ من كلماتي بعد مرور أسبوع لمَّا حَمَلْتِ لي ورقة كتبتِ فيها ما كنت أصف.

كان هناك قمرٌ في تلك الليلة، وإن لم يكن هناك قمر كنت سأزرع لك قمرين أحمرين في قلب السماء الزرقاء، وسأنتظرك تحت واحد منهما. وقد رأيت أن أنتظرك تحت ظل القمر الساذج فأنا أحب أن أكون طيبا.

شعرت مثلما لم أشعر من قبل.. لو أنك كنتِ هنا! أظنك تختبئين خلف الربوة القريبة فاستحسنت أن أغوص دائما في أعماق الظلمة بحثا عنك.

يقتلني الحنين.. وقد ذبت فيك حتى اختلطت معالمي بمعالمك فصرت ملون العينين مثلك .. مخنوق الضحكات مثلك.

لم أرغب أن أكون بعيدا فيما كنت تقتربين حتى غدوتُ أبحث لي عن توبة تمحو آثام ابتعادي، وبينما كنت غارقا فيكِ ظننتني لا حاجة لي في طوق نجاة ينقذ روحي التي أودعتك وكنت غير راغب في استعادتها.

وحكيت لك كيف أنني كنت في غيابك آوي إلى معبدك النائي في الصحراء البعيدة فانتظرك حتى المنتهي، وكنت أتراقص بينما أسير وأعزف موسيقايَ وأقربك كي نرقص معا فتتراقص خيالاتنا، و كنت أغيب فلا أدري متى أعود.

ولم أعرف أسائر أنا على قدميَّ أم أنني قد تحولت إلى طائر دائم التحليق حول منزلك... وفوق سريرك.

(6)

اعتدت أن آتي لأراك في مساء كل خميس بالمستشفى حيث تعملين. كنت أتحيَّن اللحظات التي تخلو فيها غرفة الأطباء إلا منك، أراقبك من خلف بابها الزجاجيّ وأتحين الفرصة لآتي إليك. فلا يستغرق بقائي معك سوى دقيقة أو ربما دقيقتين قبل أن يحضر أحد الأطباء فأضطر إلى الانصراف.

كان أحدهم يعمد إلى الاقتراب والبقاء إذا ما حضر، بينما نتبادل حديثا أقرب إلى الصمت فكنت لا أملك إلا أن أسألك عن علاج آخر لمرض وهميّ قبل أن أضطر في النهاية إلى المغادرة.

نعم، لم تكن الغرفة مكانا مناسبا للقاء محبيْن، كنت أُوقن بذلك وكنت قانعا بأنه أمر لا يليق، لكنني لم أكن أمتلك حيلا أخرى كلما قتلني اشتياقي لأن أراك.

في المرة الأخيرة وبينما كنا هناك أمسكت قطعتيْ عملة معدنيتين كنت أتناقلهما بين يدي خجلا وكانتا تُحْدِثَان صوت رنين غليظ لم أكن ألقي له بالا؛ فقد أبقيت عينيَّ مَسَلَّطَتَيْن على يدىّ، فلما اعتراني التردد تلعثمتُ وتجمدتْ كلماتي فأسقطت رأسي بين قدميَّ دون إرادة مني، فقلتِ لي بينما تبتسمين برفق: أعطني ما في يديك... أعطني ذاك الذي يشغلك.

أعطيتك إياها كطفل رقيق لا يملك إلا أن يستجيب لما تمليه عليه أمه. واكتشفت أنني رغم مرور ثلاثة أشهر فقط منذ أن أحب كلانا الآخر لم أعد أنا من أحبك ولم تعودي أنت من أحبَّتني فأنا لم أعتد يوما أن آتي لأراك بينما يملؤني الخجل والتردد مثلما كنت أبدو في الأيام الأخيرة.

كنتِ تَدعِينَنِي لآتي إليك بينما يملأ قلبك وصوتك اشتياق ظاهر. أذكر يوما تأخرت فيه عن الحضور إليكِ مثلما اعتدنا وما إن اقتربت من باب حجرتك في المستشفى حتى قفزت من مقعدك وأتيتِ مهرولة تستقبلينني عند المدخل، صافحتك مستوقفا اندفاعك لما هممتي بالاقتراب حدَّ احتضاني، فما الذي غيرك حتى أنك ما عدت تدعينني لآتي إليك وماعدت تشتاقين لرؤيتي وكأنني صرت شخصا غريبا لا تعرفينه؟!

وتأخرت يوما في قدومي اليك فسألتني: ألن تأتي اليوم؟. كنت أنتظر دعوتك فوجهتِها ببرود (تعالَ في أيِّ وقت، حاول أن تمر بي).

أياما طويلة مرت استرجعت خلالها ذكرى كل شيء بحثا عن سحر أسود لابد وأنه قد مسَّك أو عملٍ سفليٍّ بدل حالك وسلب إرادتك وأطفأ نار حبك فصرتِ امرأة أخرى لم أعد أعرفها، ولكنني لم أجد سوى موت مفاجئ لابد وأنه قد أصاب قلبك فأسكته.

يا للفاجعة! طبيبتي الرائعة كانت مصابة بحمى البدايات وقد بالغت في كل شيء حتى نفذت الكلمات. كنت ألحظ ذلك الإفراط في إطرائك، في إقبالك ولهفتك وفي مبالغتك، ورضاك عن كل ما أفعل وما لا أفعل صوابا كان أم خطأً. كنت أراه في بريق عينيك اللامعتين الساعيتين خلف دروبي وفي يديك الحانيتين المتقربتين حتى تلامسني.

بذلتِ الحيل ووضعتِ الخطط حتى تعلقتُ بك فلما أحببتك لم أعد أراك امرأة عادية كما اعتدت أن أراك من قبل، لم تعودي تلك المرأة القصيرة البالغة النحافة.

وتبدل حالي فلم أعد أسخر من مشهد رجل جميل يسير في صحبة امرأة عادية مثلما لم أعد أستغرب صور زفاف أحد القبيحين على امراة رائعة الجمال. وأصبحت أراك امرأة جميلة بل امرأة خيالية يفوق جمالها كل النساء، بل و صار طولك ووزنك مقاييس جمال المرأة المكتملة في عينيَّ حتى أنني قد استسغت ما قد راود خيالي يوما بأني سأحملك وأطوف بك غرف منزلك دون عناء.

هكذا فعل الحب بي، وهكذا فعلت أنتِ.

ذات مساء أخبرتِني عندما سألتكِ -بينما كنت مستلقية على سريرك حزينة مهزومة- أنك لا تَقْوَيْنَ على الحكي عن ما جري لك من أحداث سيئة جدا بالأمس، ثم اعتذرتِ عن عدم قدرتك على مبادلتي الحديث وأردتِ أن أكون إلى جوارك في تلك اللحظات، فلم تتحمسي لقربي وتفهمت ما كنت تعانين من تعب أحسسته في نبرات صوتك.

طلبت إليكِ أن تطمئنيني كلما كان ذلك ممكنا ثم وضعت الهاتف وغادرتك.

وكنت أتعجب لماذا تقابلينني بوجه متجهم وصوت مختنق ينطق بكلمات باردة لا حياة فيها بينما تبادلين أصدقاءَكِ الابتسامات؟! ولماذا تظل رسائلي إليك معلقة لساعات؟! وما كل ذاك الهدوء الذي يتملكك عندما تقررين إجابة رسائلي؟! ولماذا تقابلين صور ذكرياتنا التي كنت أرسلها إليك بكل هذا البرود القاتل؟!

فلما أنهكني التفكير بحثا عن إجابات لم أستطع الوصول إليها وبعد أن اختلطت الصور ونفد كل ما تطوعت به من أسباب وتبريرات سقتُها لأبرر خذلانك وإهمالك لي وكأنني خيال لا وجود له، أيقنت أنني قد صرت المحارب الأخير بعد أن هلك جيشي، فصرت أقاتل بالسيف وحدي وأُلقي بالسهام وحدي وأقذف كرات اللهب نحو الأعداء وحدي.

أما أنت فقد بقيت هناك تشاهدين وكأن الأمر لا يعنيك، وبينما كانت تتملكك لامبالاة غريبة فقد تحوَّلتِ إلى إنسان بلا روح، ومع ذلك فقد أبقيت على عشقي لصورتك كمجذوب طاله ذاتُ المسِّ الشيطاني الذي طالك من قبل.

وأيقنت أنك لم تجربي مثلي عشق صورة تبعثين فيها حياة وتنقشين على كَتِفِها وشما وتدونين لها الضحكات. كنت قد عشقت وبعثت ورسمت فلم أَجْنِ إلا خيالات، ولقد سطرتُ تحت اسمك علامة وعشقتك كل اللحظات وصنعتك معجزة في خيالي تبعث أرواح الأموات.

تُلْقِي بعصاها فتَسْحَرُني ..تحملني فوق السماوات وتطوف بي عند النهر قرب النار وفي الجنات عند ملائكة الأمطار عند إله الحب الغامض حارس مقبرة الأسرار، وقبل غروب الشمس نعود؛ فطقوسك في بضع نهار. فأنت كظل حقيقةً، كسحر فضيلةً وبعضُ مجون، فصلٌ في تُرَّهَات الحب ورتل من أجناد الحرب، وفرط جنون.

سر العائد منتصرا يحمله ضوء النجمات، هذي الهاتف محموما في رواق قبور الأموات أو كنصير الحب البائد صانع تيجان الملكات، فصرت كعاشق غارق في أسطورة، قمرا يمشي في الطرقات

-هل أعجبكِ ما كتب العاشق الغارق؟

أعجبني ما كتبتَ، هل هذا كل شيء؟ قلتَ أنك كتبتها في وداعي .. فهل أنت راحل الآن؟

-تمنيت لو تذكرين يوم التقينا أول مرة. هل نسيتِ ضحكاتنا، دفءَ لمساتنا وروعة أوقاتنا. وقتها تمنينا لو أسقطنا الزمن وحساباته، فروضه و قيوده وحَلَمْنا ألا يمضيَ وأن نبقى معا في تلك الحياة، بل وحَلَمْنا أن تُبعث أرواحنا معا وأن تتلاقى في كل حياة.

وحَلَمْت أن أوقظك في الصباح وأن أبعث الدفء في أطرافك من شرر صغير أوْقَدته في أناملي من أجلك، وأن أخفيكِ داخل نفسي حتى إذا ما حلَّت الليالي الباردة وشرع الشتاء في إسقاط أمطاره في غرفتك لا تمسسك حباته الباردة ولا تبتلين بمائِهِ ولا ترتجفين بصقيعه.

وَعَدَتْنِي أن نحيل دفءَ أحضاننا نيرانًا مستعرة تُذيب عظامنا في لهيبها..

-هل تذكرين؟

أذكر، ولكنني لست أنسى ذلك اليوم عندما غبتُ لبضع ساعات رغما عني فلم تمهلِني حتى أشرح لكَ وكنتَ توبخني بعنف وكأنَّ لا شيء يشغلني في تلك الحياة سواكَ.

أسدلت جفنيَّ فوق عينيَّ خجلا وندما.

- كان ذلك تصرف أهوج من جانبي ندمت عليه طويلا واعتذرت لك عنه مرات لكنك أبدا لا تسامحين. كنت طفلك الذي اعتاد أن تدلِّلِيه، فلما توقفتِ عن تدليلي لم أستطع كتم صراخي.

ولكنَّ الحياة مليئة بالأشياء الهامة، لسنا نحيا هنا بالحب دون سواه. الحب جزء من الأشياء الهامة في تلك الحياة ولكنه ليس كل شيء.

- الحب مرفأ الهرب مما نبغض، وأنا أحبكِ.

أنت قاسٍ!

_ وأنت جميلة جدا. أتدرين كم هي ساحرة عيناك الليلةَ؟
_ أأذوب إذن؟

_قلتِ لي ذلك فلم أفهم، هل كنتِ تسخرين مني؟

كنتِ تُشيحين بوجهك بعيدا وإن بقيْت عيناك ترياني في التفاتاتها العفوية. تُري هل أردتِ الإمعان في تأنيبي إرضاء لكبريائك؟

هل أردتِ إشباع غرورك بالانتقام من اندفاعي و ثورتي، أم تُراكِ أردتِ الانتشاء بينما أُعيد على مسامعك قصة العاشق الإغريقي العابر حدود الزمن خلف الربة الجميلة؟!

ثم بدا وكأنك تصدقين ما ألقيته على مسامعك، فهدأت مخاوفك وراقت ملامحك فوددت لو أنكِ تُزِيلين كلَّ ما أقمتِ بيننا من حواجز كادت تفرقنا، لكنك أبقيت على ما في نفسك من تحدٍ وعنادٍ وظللتِ متمسكة بحكمتك الأزلية التي أفسدتْ لحظاتنا كلما لاح في الأفق اقتراب.

فقلتِ:

أحب الإطراء ولكنني لا أصدقه.

فغدوت كأنني كنت أُلقي أكاذيبَ على مسامعك، وغدوت كأنني كنت أعيش قصة نسجتها في خيالي فأنا لا أحبك وأنتِ لا تحبينني وإنما جمعنا وهم لا وجود له.

"لا أحد يموت إذا ما فقد حبيبا أو حبيبة" حكمة أخرى من حكمك الأسطورية أطلقتِها فأيقنت أنكِ تنتقمين مني وتنتقمين من نفسك لسبب لم أفهمه وأنك قد تذهبين في سبيل هذا الانتقام حتى المنتهي وأنك لم يعد يعنيك إن نحن اقتربنا من جديد أو افترقنا إلى الأبد.

فلما التقينا مرة أخرى كنا نتبادل أحاديثَ من وراء جدار يحجبني عنك ويحجبك عني فصرنا كغريبيْن.

(7)

قالت سارة:

إنه يعيش حياة طبيعية وكأنه لم يفقد شيئا ذا قيمة، يضحك ويبادل أصدقاءه الحديث ويسهر حتى الصباح، لا زال ناجحا في عمله بل و يزداد نجاحا، يسافر كثيرا كعادته ويقضي أوقاتا سعيدة.

ثم راحت تسألني بوجه جاد: هل تراها أفعالا منطقية لرجل هجر حبيبته منذ أسابيع قليلة؟ انظر كيف تبدو أنت حزينا!

قالت ذلك ثم استشعرت حرجا بالغا فصمتت. فلما ابتعدتْ قليلا عن مكانها أقبلت تعتذر وهي تبرر لي كيف أنها لم تكن تقصد أن تُثير شجوني وكنت أصدق عفويتها فيما قالته.

ولما لم أكن أملك طاقة مجادلة قَبِلْت اعتذارها عن ما قالت، وكنت أشفق عليها ما تعانيه. فلما بكت من جديد سألتها أن تتوقف عن البكاء ورَجَوْتها أن تتماسك قليلا وقد خشيت أن يراها الآخرون في تلك الحالة.

أنا وإن كنت لا أحب المرأة الضعيفة كثيرة البكاء فإنني لم أكن أستطيع إلا أن أتعاطف معها لإدراكي جيدا كم هو قاسٍ ألم الافتراق وأردت أن آخذها بعيدا عن ما تفكر فيه، فذكرتها بذلك اليوم الذي أرسلت إليها أشكي ضياع فصل كامل من روايتي بعد أن استغرقت في كتابته خمس ساعات.

ضحكت ثم قالت:

سألتك حينها ألا تحزن على شيء فقدته وأخبرتك أنك ستستبدله حتما بفصل أروع. عند ذلك ركزت عينايَ في عينيها ثم ضحكتُ ساخرا وسألتها:

أحقا؟ أحقا نستبدل ما نفقده بأروع منه؟

فلما أدركت خواء نصيحتها التي لا تعرف كيف تطبقها على حالها ضحكت هي الأخرى ثم أسمعتني حكمه -كان لها حِكَمُها أيضا- وإن كانت أكثر قدما. قالت: "كثيرا ما نطالب الآخرين بأن يفعلوا ما لا نفعل".

أما أنا فكنت أعلم أننا لا نستعيد أبدا بهاء ما نفقده، لكنني لم أكن لأتوقف كثيرا أمام ما فقدتُ من كلمات قضيتُ ساعات أكتبها فاستبدلتها بأخرى لم تكن تروقني مطلقا.

وتوقفت قليلا قبل أن أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي سألت فيه (داليا) إذا ما كانت قد قرأت نص الرواية الجديد؟

فقالت: أرسلها لي حتى أقرأها.

- أرسلتها لكِ.

_لقد قرأتها .. جميلة حقا

_ظننتها لن تعجبك.

- أذاك هو نص الرواية التي ستُعرض في مسرح الجامعة؟ إنها رائعة. أعجبتني شخصية الفتاة الصغيرة، فقد رأيتها كامرأة تكشف خداع الآخرين وأكاذيبهم وتَصَنُّعَهم. إن الفتاة تعي جيدا كل ما يدور

حولها بينما يظنونها طفلة صغيرة بلهاء، ألهذا لم تسمِ أسماء لشخصيات روايتك؟

_أسعدني كثيرا أنك فهمت ما أردت طرحه وكنت أظنني قد أفرطت في إخفاء مضمونه: فأنا أخشي دائما من أن تبدو أفكاري مفرطة في الغموض أو لا تبعث على الارتياح مثلما يراني الناس كذلك فينفرون مني أو يقتربون بحذر بالغ. من جانبي لم يعنني قط اقترابهم أو نفورهم أو ما يظنونه بي؛ ولهذا عشت حياتي وحيدا في معظمها.

أنتِ ظَنَنْتِنِي أعيش مغامرات نسائية لا تنتهي، لكنك لا تدرين كم هو قاسٍ ألا يفهمك أحد سوى نفسك التي تطيعك وتُرضيك بل وتسعد وتبكي من أجلك؛ ولهذا قررت طيلة حياتي أن أصاحبها دون الآخرين. هل لي أن أتركك للحظات؟ أيناسبك إن أكملنا حديثنا في المساء؟

_ ربما يغلبني النوم مبكرا هذا المساء.. لست أدري.

بدا وكأن النوم قد غلبك ليومين متتاليين. عدتي خلالهما إلى ممارسة عاداتك الثلاثِ المحببة: الصمت والغياب والاختفاء.

_ثم عدت لتخبريني أنك بخير وأنك لست مسافرة على نحو ما ظننت، وأنك قد انشغلت لبعض الوقت ثم أتبعتي باعتذار، ورحت تَشْكِين كيف أنك لست تدرين متي تنتهي من كل ما يؤرقكِ ويفسد حياتك، وكيف أني لا أقدِّر ما تعانيه من مشكلات تُغَيِّبُ أحاسيسك بالحب، ثم اقترحتي أن نُبْقِي المشاعر جانبا الآن؛ فأنتِ كما قلتِ لستِ في حال مناسب للحب.

واستطردتِ: بإمكاننا الإبقاء على مشاعرنا وإن انتهت حكاياتنا معا فأنا لم أعد قادرة على تحمل كل ما يحيط بي من أوجاع، على أنني لست أنسى كم كنت راقيا ونبيلا دائما، أنت جنتلمان حقيقي. أقدر مشاعرك تماما.

عند ذلك لم يعد هناك من سبيل للبقاء ولكم آلمني أن تنتهي حكايتنا تلك النهاية و لكنَّ عجزي عن فهم أسباب افتراقنا كان أكثر إيلاما.

ثم قلتِ في عتاب:

هل تذكر عندما قلتَ لي ذات مرة أنك لا تستطيع الاستمرار، هل تذكر كم كنت متعجلا في إعلان ذلك دون سبب مفهوم؟ سألتك ألا تذهب وسألتك أن تبقى إلى جواري لأنني أحبك، بل وَرَجَوْتك ألا ترحل فإن كان حبك لي لم يعد هناك فبإمكاننا البقاء كصديقين فأنا لا أطيق ابتعادك.

كنت لا أدري ماذا فعلت وأغضبك ولكنني أردت أن تبقى دائما فلا تغادرني، وأردتك أن تصارحني إن كنتَ قد أحببت امرأة أخرى.

_ أما انا فلم أكن أعرف كيف أتحول بين يوم وليلة من حبيب إلى صديق وكنت قد بقيت أحبك، إلا أنني لم أكن أقوى على تحمل تجاهلك لي، فرفضت أن نكون صديقين مثلما أردتِ لكنني سرعان ما وصفتُ لكِ في اليوم التالي كيف قضيت ساعات افتراقنا أعاني ابتعادك، وأخبرتك أني أعلم كم كنت تعانين ابتعادي أيضا. والآن أعود لأنني لم أطق فكرة أني آلمتك.

فلما أجبتِني "أنا أحبك" ولست أقوى على رحيلك، ولما وصفت لي كيف قضيت ليلتك بينما تشعرين باليتم لابتعادي وكيف أن ذلك الإحساس لم يزل منذ رحيل أبيك، فكرهت أني آلمتك وعدت: فلم نفترق إلا ساعات.

ثم تعللتي بأسباب غيبتِك وأردتِ أن تقوليها دون أن أسألك وأردفتِ تبررين في أسىً لماذا غبتِ عني فلم تتمكني من إجابة رسائلي:

كنتُ أقضي أجازة في المصيف مع العائلة. بقينا هناك يومين. أنت تعرف كم أكره البحر، أحب الحدائق والغابات، أحب لونها الأخضر وأكره البحر؛ لأنه لا يُشعرني بالأمان، ولكنني كنت مضطرة إلى أن أكون بصحبتهم. وقد كتبت لك في المساء بينما كنت أجلس في شرفتي الخلفية المطلة على المساحات المكتسية باللون الأخضر. فلما كنت أُمَلِّي عينيَّ بجمال الحدائق والأشجار، ولما كنت أقف بين لحظة وأخرى أرقب خيالا لك، وكنت أظنك تختبأ هناك خلف أحد الأشجار فأنست روحك التي تحيطني في كل وقت وأي مكان.

وقد دعوتك إلى غرفتي لكنك لم تسمعني أو ربما سمعت ولكنك أردت أن تبقى من حولي دون أن تلمسني مثلما تُمْلِي عليك رومانسيتك التي لا تفارقك إلا قليلا.

أتعجب لماذا غضبت وأردت الرحيل بينما كنت معي وحولي هناك في كل مكان و في كل الاوقات؟! لقد فطرت قلبي بقسوتك فصار يترقب تهديدك بالرحيل بين لحظة وأخرى ولم يعد يشعر بالأمان.

_ألهذا تغيرتِ؟

لم أتغير ولكنني أحسست وخزة في قلبي بعد أن قابلتني بقرار رحيلك مجددا بدلا من أن تحتضنِّي بعد غياب.

فأردت أن نصير صديقين، فربما كان في صداقتنا فرصة تدفعك يوما للتراجع عن رحيلك بعد أن غدوتُ أكثر ضعفا من أن أحتمل المزيد من الآلام. هل فهمت الآن؟

إن لم تكن قد فهمت بعدُ فاعلم الآن أنني أحبك وسأبقي أحبك ما حَيِيتُ.

- أنا أيضا أحبك وسأبقي أحبك طوال حياتي لن يغيرني شيء.

(8)

تمنيت لو أننا لم نلتقِ وتمنيت لو أننا بقينا مجرد اثنين من البشر قد يلتقيان صدفة -إن أرادت الصدفة لهما أن يلتقيا- وتمنيت لو بقيت علاقتنا كعلاقتي بماسح الأحذية. فقد بقينا نتبادل التحية دائما فبقي بيننا شيء يجمعنا لم يتبدل.

أما أنا وأنتِ ورغم كل الحب الذي جمع قلبينا فقد غدونا نهرب من تبادل التحية. لم يعد أحدنا يتطلع للقاء الآخر ولم أعد أنتظر مرور الأيام حتى يحين لقاؤنا. وكانت تلك الأيام تمر بطيئة مملة حين كنت أتوسل مرورها.

وغدت أيام الأسبوع التي كنت أنتظر حلول نهايتها تمضي سريعا ولم أعد أنتظرطويلا حتى يأتي يوم اعتدنا أن نلتقي فيه من قبلُ وكأن الأسبوع قد أسقط عن كاهله بعضا من أيامه في كبرياء.. اختصر بعضها إرضاءً لغروره، وتَنَكُّرًا لعذاباتي في انتظار انقضائها. وكأنه قد راق له كثيرا أني كنت أعاني الانتظار. كنت أنتظر قدوم الخميس الذي اعتدنا أن نلتقي في مسائه عاما كاملا حتى يأتي.. ولم يكن يأتي قبل عام.

الآن صار يأتي مهرولا وكأنه قد تعلم القفز بعد أن تأكد له أنني قد صرت كسيحا. وها هو يأتي متخطيا (الإثنين) في خفة بعد أن كان يحبو زاحفا كسلحفاة متأففة فوق جثته العفنة.

ثم أراد أن يتجاهل الثلاثاء ذلك الضيف الثقيل القادم دون دعوة فأسقطه وغدت الأيام متشابهة، لا انتظار ولا تطلع، لا اشتياق ولا تململ، أيام بلا أسماء بلا معنىً، بلا فرحة تنتظرني أو أنتظرها، بلا أحزان تغادرني أو أغادرها، بلا شيء تقريبا سوى أنني بقيت كما كنت دائما رفيق أحياء ميتين أو موتى على قيد الحياة.

وبقيت أعاني وحدي تلك الذكريات التي تسكنني دون أن أدري ما السبيل إلي نسيانها، تطاردني أينما ذهبت وحيثما أقبلت وفي كل مكان مررنا به كنتِ فيه معي وإلى جواري.

وتحول طريق عودتي كل يوم إلى منزلي إلى طريق الآلام. هو ذاته الطريق الذي جمعنا مرات، نفس الزحام ونفس المتسكعين في الشوارع، بل ونفس أغنيات أم كلثوم التي كانت تبدأ عند الحادية عشرة مساء ذلك الموعد الذي اعتدنا أن نكون فيه معا في سيارتك.

كنت لا أزال أتابع أخبارك وكنت أضعف من أن أتوقف عن محاولات رؤيتك، وكنت لا أزال أختلس النظرات إليك من وراء الباب الزجاجي لحجرتك في المستشفى مستترا خلف حائط قريب دون أن تَرَيْنِي.

وكنت أنظر في عينيك طويلا أقرأ ما كُتب فيهما؛ ففيهما اعتدت أن أرى ما يدور في عقلك وما يُعتمل في صدرك وفي عينيك. كنت أقرأ حكاياتِك التي كنت تخفينها وضحكاتك المكتومة الحزينة وخطط السيطرة التي لم تجيدي إخفائها. أردتِ أن تملكيني وأردتِ أن أكون حرا _ هكذا أخبرتِني _، لم أكن أفهم كيف تملكينني وكيف أكون حرا في آن معا!

لكني لم أكن أُلقي بالا إن أنتِ ملكتني؛ فأنا أيضا أردت امتلاكك حتى لا تكوني لأحد غيري ولكني وإن أردت أن تكوني حرة أيضا فإنني لم

أكن أعني أبدا أن تكوني حرة دون أن أكون في عقلك وقلبك في كل الأوقات.

فإذا ما التقيتِ أحد زملائك أو أحد أصدقائك أو أحدا من رفقاء دراستك الذين جمعتكم ذكريات لا زالت عالقة في وجدانك ووجدانه _كذاك الذي التقيته صدفة ذات يوم وحكيتِ لي عنه _ فلتتذكري دائما أنني هناك وأنني أغار مثل سائر أبناء قبيلتي من الرجال.

ولأن غيرتي على من أُحب إحساس لم أصنعه أو أختاره، فقد كانت تلك الغيرة سببا دائما في اصطدامنا في معظم حالات اصطدامنا.

في المرة الأولى حكيتِ لي عن حبك الأول وكنت أحترق بينما أقرأ ما تكتبين لي عن ذاك الحبيب الذي علمك كما أخبرتني دون تردد أو مواربة _ كل شيء في الحب _

كنت أجاريك كي أفهم ماذا عساه علمك ذلك الذي ظننته لا يعلم شيئا ولم أكن أعرفه بالطبع، لكنني كنت أتساءل: كيف له أن يكون قد علمك كل شيء في الحب بينما لم يعلمك فداحة أن تذكري تفاصيل حبك السابق بينما تغطي وجهك ابتسامة عريضة تزوغ عيناك بين لحظة وأخرى، فتسبح بعيدا في خيال خارج الأفق، تنفرج أساريرك وتنسدل شفتاك لتسع ابتسامات استدعتها الذكريات بينما أنتِ مع حبيبك الذي تحبين الآن.

لم أكن أراك ولكني رأيتك كما بدا لي في تلك اللحظو وكأنك قد غادرتني إلى ذكرياتك بينما بقيت هناك أرقبك حتى اشتعلت النيران في قلبي فلم أقوَ على البقاء هادئا.

نهرتك لِمَا قلتِ ولم أستطع تقبل المزيد وأحسست أنت بفداحة ما كنت تقولين ولكنّ إدراكك كان متأخرا جدا فلم تتوقفي عن حديثك حتى أدميتِ قلبي تماما وإن لم تقصدي إيلامي ولكنك أصبتني بجرح

عميق؛ فحكايتك التي تعود إلى خمسة عشر عاما مضت -كما أخبرتني في نهاية حديثك عنها- قد فطرت قلبي رغما عني بعد أن تجاهلتِ عمدا أن تخبريني كم من الوقت قد مضى على تلك الذكرى إلا بعد أن أيقنت أنك نجحت تماما في أن تثيري غيرتي.

أعلم أن انطباعك الأول عني أنني رجل هادئ وأنك تعتقدين أنني لابد وقد مررت بتجارب كثيرة كوني قد تخطيت الأربعين من عمري وأنني إنسان يحترم شريكته ويقدر مشاعرها دون أن أغفل ما ظننتك قد مررت به من تجارب بل وأوقن أنك لابد وقد أحببت من قبل؛ ليس فقط لتقارب عمرينا ولكن لأنك امرأة شديدة الرومانسية لا يمر وقت طويل بينما تُبقي على قلبها خاويا أو تخلو حياتها من تجربة حب.

وأعلم أيضا أنك وأحدَهم قد تواعدتما بالتأكيد وربما مررتما من نفس الطريق الذي مررنا به أنا وأنت وربما كان الطريق مزدحما بالمتسكعين وربما كانت أم كلثوم تغني نفس الأغنية وربما كانت نفس الوصلة التي تبدأ في تمام الحادية عشرة مساء بينما أنتما متشابكا الأيدي وربما متشابكا الشفاه.

لكن تلك الذكريات وذاك الخيال كانا لابد لهما وأن يبقيا بعيدا عندما نكون معا؛ فلست أراه مناسبا أن أحكي لك عن قصة حب جمعتني بامرأة رائعة الجمال طويلة وممتلئة وأنها قد علمتني كل شيء في الحب.

وهكذا اختلط ما في رأسك فظننتِ أن بإمكانك أن تحبيني وتَبْقَيْ حرة فيما تقولين وأبقى حرا فيما أقول. أدرك جيدا تلك الحدود الفاصله بين حريتي وبين ذكر تفاصيل وذكريات ما جمعتني بامرأة عرفتها من قبلك فلم أرَ أنه من اللائق أن أخبرك بأن تلك المرأة علمتني كل شيء في الحب ثم أدَّعي أن تلك قصة قديمة.

أما أنت فلم تكوني تدركين تلك الفواصل وكأنك لا تعرفين أن ذاك يجرح كبرياء الرجل أيِّ رجل يحب، ولست أظنني استثناء من ذلك.

ليست تلك حرية فيما أظن أو لعلها كذلك ولكن من الأفضل أن تبقى ذكرياتنا وقصصنا التي نحتفظ بها في ذاكرتنا عن رجل أخر أو امرأة أخرى بعيدا هناك فلا نتأملها في حضرة من نحب.

أحسستِ بالخجل ورأيتك نادمة لمَّا استغرقتِ طويلا تقصين لي تلك القصة القديمة، فلما رأيتني غاضبا عدتى إلى ممارسة هوايتك وكأن الاختفاء هو عادتك المحببة التي لم أكن أعرفها بعدُ، فقد كان اختفاؤك للمرة الأولى أمرا ملفتا في ذلك الوقت، وأغلقتِ هاتفك وعطلتِ صفحتك وكافة وسائل تواصلك معي وإن بقي الاتصال بهاتفك متاحا، إلا أنني لم لأكن راغبا في مهاتفتك حين بدا لي أنك أردتِ أن تَبْقَيْ في عزلة لبعض الوقت.

احترمت رغبتك وإرادتك وخصوصيتك أيضا، وبعد مرور أيام أرسلت إليكِ أسأل: فيم كان اختفاؤك؟

فأنا أفهم ما يدور بين نقيضين يجذبهما الاختلاف وينفرهما أيضا ولكن ينبغي أن يبقى اختلافهما في دائرة صغيرة لا تطال ما يجمعهما من حب.

ربما احتاجت علاقتنا بعض الوقت حتى يفهم كلانا الآخر؛ فنحن لم نلتقِ سوى مرات قليلة ولم نتبادل حديثا مطولا وجها لوجه؛ فالرسائل الصامته التي كنا نتبادلها دون سواها -إلا قليلا- قد أبقت مشاعرنا مشوهة لا روح فيها.

وقد ظنناتنا غرباء وقت اختلفنا للمرة الأولى وإن جمعنا حب جارف فلم أشأ أن أفسد كل شيء. أما أنت فقد غمرتك السعادة حينما أرسلت لك أسأل أين أنت. لم يكن اعتذارك وقتها يبدو لك وكأنما

تبذلين تضحية عظيمة، لكن ما أدهشني هو ظنك الغريب بأنني قد تركتك للأبد وأنني لن أعود ثانية.

وعندها أخبرتك بأنني أحبك وأننا قد نختلف وهذا أمر طبيعي قد يحدث مجددا لكنني أفرق ما بين حبي لك واختلافنا وأنّ قدرا من التفاهم والثقة والتقارب بيننا سيبدد خلافاتنا فلن تدوم طويلا، عدتِ أكثر إشراقا وأكثر إقبالا وطُمَأنينة؛ فكلماتي تلك قربتك من جديد وأردت أن تلقي بجسدك بين أحضاني وأردت أن تقبليني قبلة حارة لمَّا اطمئننت إليَّ أنني لست ذلك القاسي المتعجرف الذي خلتِه يهجرك لخطأ لم تقدِّري عواقبه.

فلما التقينا أردت أن تقبلي وجنتي القريبة منك، أردتِها قبلة تجمع ما بين الاعتذار والامتنان والحب لأنني بقيت أحبك كما كنت دائما و لم يغيرني شيء.

و لكنك ما إن هممت بتقبيل وجنتي حتى استدرت فوضعت شفتيَّ فوق شفتيك فابتلتا وامتزجتا وغبنا لثوانٍ، ثم عدت فأدرت لك وجنتي فقبلتِها بينما تضحكين لدعابتي.

ثم حل موعد غيابك من جديد وكنت أعاتبك لذلك، لكنك تحولت إلى امرأة أخرى غريبة لا أعرفها.

قلتِ:

_أنا حرة .. أحب أن أكون حرة دائما

_وهل قيدتك يوما؟

-تريد أن تفرض وصايتك

_ليس صحيحا، انظري .. أنت تُرضين الآخرين وحسب وتنسين. _أنت- في زحام إرضائهم تنسجين خيالا لصور مشوشة تتوهين داخلها

فتراوحك بين الفرح والكآبة وفي المساء تعودين إلى فراشك حزينة متعبة

_لكنّ إعجاب الكثيرين بي لا تنقصه شهادتك

_ مهلا .. انظري، هذا ليس أنت!

-مرات فعلت أشياء أحببتها ملأ قلبي .. أنت قلتِ لي ذلك وأثنيت على ما فعلت.

_أجل ولكنك ما لبثتي أن عدتِ تعولين على إرضائهم من جديد فهل يكون حرا من يرهن إرادته للقطيع؟ ماذا يفيدك خيالهم؟

أنت رائعة عندما تكونين أنتِ .. أنتِ وكفى. ليتك تفهمين ما أعنيه، ليتك تتوقفين عن ظنونك قليلا.

- أكرهك

_حسنا ..كراهيتك لي صادمة ولكنها إحساس يحررك .. أما أنا فلم أعد ساعيا لإرضائك على أية حال

_فلنبقَ صديقين إذن

_ولكننا لا يمكن أن نتحول إلى صديقين بعد أن كنا حبيبين، تلك نهاية كلاسيكية لا تشبع رغبتي في الإثارة وأنا أفضلها نهاية درامية.

عند ذلك تركتك وابتعدت أياما بلا اتصال أو رسائل، فلما تبادلنا الرسائل بعد عشرة أيام كنتِ قد تحولت إلى شخص آخر لم أكن أعرفه من قبل. راسلتك فغلبك الكبرياء، وذكرتِني بعرض الصداقة اللعين وذكرتني بأنني قد رفضت عرضك متعللا بعشقي للنهايات الدرامية دون سواها، وبأن حياتك قد تغيرت في غيابي عنك، ولكنك لم تفصحي عن ما تغير في حياتك في أسبوع، وإلامَ كنت تلمحين؟!

ظننتك أحببت رجلا آخر ونفيتِ أن تعيش من في مثل حالتك قصة حب جديدة ولكنك أبقيتِ على عنادك وغرورك وربما رغبتك في الانتقام فتمسكتِ بخيار الرحيل الذي اخترته أنا قبل أيام وكأنك أردتِ عقابي حتى النهاية.

قلتِ:

لست كرسيا تتركه ثم تعود فتجده خاليا في انتظارك، ولست أقبل بعودتنا من جديد. انتهت حكايتنا مثلما أردت أنت وبالطريقة التي أردت. انا فقط أطعت رغباتك واحترمت اختياراتك في كل الأوقات التي اخترت فيها أن تبتعد. كنت تفترض قبولي وموافقتي على كل ما تختار من متناقضات، وقد أردت الرحيل ثم أردت البقاء ثم رحلت والآن تريد العودة.

أين أنا من كل ذلك؟

_أنتِ روحي

وأنا أين روحي؟ لست ألتمس لك أعذارا تلك المرة. أنت تغفل أننا قد نضطر إلى أن نغيب أحيانا دون إرادة منا؛ لسنا نختار كل شيء في حياتنا.

بعضهم يختبئ هناك في بقعة صغيرة في السماء قبل أن يهبطوا فجأة ويختاروا لنا كيف نقضي بعض نهار أيامنا وأمسياته. ورغم امتعاضنا نضطر إلى أن نذهب حيث أرادوا.

قد كانوا يحيطون بي طوال الوقت ولكني كنت أسرق لحظات -وإن كانت قليلة- فأتواصل معك، لكنك أنانيٌ تريدني أمامك طوال الوقت وأنا لا أملك أن أفعل ما تريد وإن أردت أن أفعل لَمَا استطعت؛ فأنا

أرعى أسرتي وهذا واجبي نحوهم، وذاك يستغرقني لبعض الوقت مثلما تستغرقني رغبتي في العزلة والصمت والابتعاد عن كل شيء أحيانا.

لست أملك أن أتجاهل من يعيشون معي وحولي دائما ولست أظنك سوف تستغرب ذلك إن أنت فكرت بعقلك لا بعواطفك؛ ذاك اهتمام طبيعي من جانبي نحوهم، أم لأنك تعشق الوحدة تريد أن تعزلني عن الناس؟!

أنا لا أعشق الوحدة وأحب أن يكون الناس أمامي وأحب أن أكون من حولهم، أنا أشعر بالألفة في وجودهم وان كنت أختار أن أبقى بمفردي أو أنعزل عن الجميع أحيانا فذاك استثناء.

تلك أحد اختلافتنا التي أخفقنا في تجاوزها؛ تريد أن تفرض إرادتك طوال الوقت، تعلن في قسوة واضحة أنك راحل ثم تعلن لي عودتك وكأنني لست جزءًا من حكايتنا وكأنني ينبغي أن أقبل ما تقر على غير إرادتي وكأنني يجب أن أبقى في انتظار قراراتك المتضاربة وأقبلها في سعادة.

هل تذكر ذلك اليوم عندما غبت لبضع ساعات؟ كنت تلومني بعنف و كأن لا شيء يشغلني سواك.

_ كنت كطفل اعتاد أن تدلليه فلما توقفتِ عن تدليلي لم أستطع كتم صراخي.

_ولكنك تنسى أن الحياة مليئة بالأشياء الهامة وإن بغَضْنَا بعض ما يحيط بنا، بل وكرهنا أن نفعله رغما عنا.

_ لكن الحب هو مرفأ الهرب مما نبغض. كنت دائما أتطهر من ما أبغض عند شجرة حبك المقدسة.

كلا، هذا لم يعد كافيا لم أعد أحتمل انتظار عودتك لمَّا تقرر أن تغيب أو أنتظر لحظات إعلان رحيلك بين وقت وآخر. وعليك أن تتمسك باختيارك الأخير -الرحيل الذي أعلنت- فأنا لست أقبل عودتك من جديد.

بقيت كلماتك التي أطلقتها كرصاصات متلاحقة تمزق جسدي وتبعثره أشلاءً. أحسست أنك تُخفين شيئا وبقيت على قناعة أنَّ الكائن الرقيق لا يتحول إلى وحش كاسر دون سبب معقول، وصرت موقنا أنّ ذلك الشك الذي يعصف بي لا يمكن أن يُولد من فراغ ولكني عجزت عن إدراك ما تؤكده ظنوني حتى قادتني الصدفه لصفحة الأسئلة التي يطرحها بعضهم عليك في تطبيق (ask). في البدايه كنت أتابع تلك الأسئلة وقد دفعتني الرغبة في اكتشافك وكيف كانت أحوالك قبل عام من تلاقينا وماذا كان يثير اهتمامك في ذلك الوقت.

بدا لي ما قرأت مسليا، أسئلة عادية تدور حول أفكار سياسية واعتقادات دينية ورؤىً خيالية وأحيانا أسئلة تافهة وأخرى وقحة وأخرى لهائمين يتبعون الأنثى أينما حطت؛ يدفعهم خيال لصوره يرسمونها لها في أذهانهم ولكنها ليست هناك على الأرجح، وهم لا يتوقفون عن تلوينها كيفما شاؤوا، ثم يتحولون لعبادتها وكأنها ربة من أرباب السماء.

ولأنني كنت أعرفك وأحفظ ملامحك جيدا فقد بدا لي ملفتا أن يراك أحدهم شابة مدللة ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين.

مضيت أتصفح مزيدا من الأسئلة والإجابات، لكنني توقفت فجأة وقد شعرت بوخزة تؤلمني لمَّا أجبتِ أحدهم بأنك قد أنهيت دراسة الطب منذ ثلاث سنوات فقط -كانت تلك كذبة كبرى- فقد مضت سنوات طويلة علي تخرجك من كلية الطب.

فلما قرأت باقي إجاباتك على ما طرح من أسئلة أيقنت أن ثمة محاولة فجة من جانبك للخداع والتأثير في هؤلاء البلهاء وأن اختيارك لتطبيق الأسئلة ما هو إلا سقطة مزرية أردت بها جمع عدد من القطيع الذي يملأ العالم الافتراضي من حولك وبدا لي أنك تخدعين بعض البلهاء الذين سال لعابهم سعيا وراء فتاة شابة مراهقة صورتها لهم امرأة عاقلة ناضجة لا ينبغي لها أن تسوق مثل تلك الأكاذيب. وقد رأيتك تَلْهِين بعقول من يصغرونك، فبدا لي كم كنتِ مخادعة تعانين الفراغ والإهمال وتعانين انهيار الثقة في كونك امرأة كاملة.

أنا رأيتك جميلة ولم تَرَيْ نفسك مثلما رأيتك. كنت ترسمين صورا تستثير مخيلة من لا يعرفونك فتشبعين رغبتك في الامتلاك وتشبعين خيالك النرجسي بوهم كاذب فتتُوقين إلى رجال يذوبون فيك عشقا حتى تأسريهم بجمال مزعوم وعقل متفرد.

طبيبة شابة جميلة ومثقفة ومن عائلة ثرية مكانتها مرموقة وشعرها ذهبي وعيناها ملونتان، من ذا يقاوم كل هذا الخيال فلا يتبعك منساقا مسلوبا، وقد هالتني دعوتك لمن لا تعرفينهم لمبادلتك الرسائل والاتصال بك أيضا.

فغدوت أتساءل: من تكون تلك المرأة؟!

سألت نفسي بينما أتألم. كان غريبا أن أعرف عنك أكثر من خلال ما كتبته أنت للغرباء، وكنت قد أخفيته عني تحت شعار _ مساحتك الخاصة _ و تعجبت لما وجدتك تفصحين لهم عن لون شعرك ووزنك الطفولي ومقاس حذائك الصغير، بل وتبادلينهم الضحكات وتفصحين لهم عمّا إذا كنت في علاقة حب الآن وفي السابق.

وضحكت بمرارة لما أخبرتهم عن قصة حبك الأول وكيف كانت رائعه كما وصفتِها لهم. تلك القصه التي حكيتِ لي عنها وأغضبتني لما

رُحتِ تخوضين في تفاصيلها وصفتها بالرائعة من دون أن تبرري لي سببا لنهايتها الحزينة طالما أنها كانت بتلك الروعة.

أنا لم أشأ أن تخبريني عنها، وأما أنتِ فقد كنتِ كعادتك تسوقين أكاذيب مجهولة بلا إفصاح. كيف بدأت ولم، وكيف انتهت أيٌّ من تلك الحكايات؟! .. لا أحد يعرف!

لأنك لا تريدين لأحد أن يعرف، فقط تنسجين حكايات وصورا هلامية وتتقمصين دور زهرة عباد الشمس التي تجمع النحل من حولها فتقرر مشيئتها من يمتص من رحيقها ومن تجفف له منابعها فيرحل دون أن ينال قطرة واحدة من ذلك الرحيق.

صارعتني رغبة جامحة في تحطيمك وغالبني الأسى لحالك وأردت أن أمتنع عن إنكارك فكانت لهم الغلبة أحيانا.

و بينما كنت محموما من أثر طعنتك الغادرة كنت لا أزال صلبا متماسكا وإن غلبني الغضب وقذف بي الانفعال وصارت حياتي لا تحتمل وجود آخرين أيًّا كانوا، فتحولت حياتي جحيما.

كان من الصعب أن أتجاوز مشاعر الحب وقد زارتني بعد غياب وكنت نسيتها سنوات، وكنت أتجاهلها كلما لاحت أو أقبلت وكنت سعيدا بوحدتي مستأنسا حريتي لاعنا وحشتي، لكنني كنت ممتنا إذ أعيش بلا آلام تقتلني أو تهبط بخيالي من السماء إلى الأرض.

أخفيت عنك ما قرأت وأبقيته سرا مكتوما في صدري، فلما كنت أبادلك الرسائل الروتينية الخالية من الدفء كنت أعيد رؤية تفاصيلك البريئة وقسمات وجهك الحالمة الوديعة الصافية كصفاء عينيك.

فلما أُريد لنا أن نلتقي وجدت ملامحك باقية هناك مثلما كانت دائما، لكنَّ عينيك صارتا باهتتين. رأيتهما وقد غطتهما طبقة كثيفة من الأكاذيب ورأيتهما عينين مخادعتين تتصنعان البراءة، لكنهما ليستا بارعتين تماما في تمرير كل ما أرادت تمريره من خداع.

ما عاد الحب يُخفي ما تراه الأعين، غاب تأثيره الحالم فبدا ما كان جميلا وقد اكتسى بالقبح والرداءة. انكشف دور تلك المرأة الطيبة الذي كنت تلعبين، فصرت ناقما على ما تصنعتِ من صدق، وقد طالت نقمتي حدَّ السخرية من نفسي لَمَا كنت أبدو عليه من سذاجة تخطت حدود العَتَهِ.

وبمرور الأيام بدأ حبك يخفت في قلبي وبدأت ذكرياتنا معا تتراجع، ولم يعد قلبي يدق لرؤيتك ولم يعد يسعى إليك مثلما اعتاد من قبل.

وبقيت هناك في مكان ما صورةً تختلط معالمها في خيالي وتمتزج فيها المشاعر ما بين حنين وكراهية، وقد صرت ناقما على أيام الهوى ولياليه وسيرته.

لكنَّ كراهيتي لسذاجتي قد غلبت كل كراهية و لم يرق غضبي أبدا حد الرغبة في أن يَمَسَّكِ سوءٌ؛ فأنا لم يكن يسعدني أن تعاني ألما.

***

حاولت أن أملأ ما تركته من فراغ قاتل في حياتي دون جدوى رغم كونك لم تكوني حاضرة معي في تلك الحياة الخاوية إلا للحظات قليلة.

كانت الذكريات التي جمعتنا تستحضرك رغما عني بينما لم تكوني حاضرة إلا في موسم البدايات عندما كانت ثقتي واطمئناني إلى أنك ستنتظرينني إذا ما غبت حاضرة، وأنك ستحيطينني برعايتك أينما حللت بما يكفي لأن يبعث الراحة والسكينة في قلبي.

ووقت أن كانت رسائلك القصيرة التي اعتدت أن ترسليها إليّ في ساعات النهار الطويل وفي ساعات الليل المتأخر تنطق بحب عميق يملأ قلبك، وبدون ترتيب أو معرفة مسبقة وجدت من تهمس في أذنيّ في صمت وامتنان لما صنعت من أجلها، فغلبتني الدهشة وغدوت أتساءل عما فعلته ويستحق ثناء تلك المرأة.

كانت مجرد رسالة اطمئنان عادية يتبادلها الجميع إذا ما أصاب أحدَهم مرضٌ يستحق المواساة والمساندة وكان أن فعلت مثلما فعل آخرون.

أرسلت لها:

_ عزيزتي (ساره).. أمنياتي بالشفاء العاجل.

وأرفقت مع الرسالة صورة لباقة من الورد.

هي امرأة راقية تبدو الطيبة في ملامحها لكنني ما عدت أعوِّل أبدا علي طيبة الملامح الظاهرة أو الخفية ولم يعد يشغلني إذا ما كانت إحداهن طيبة أو شريرة؛ فأنا لم أعد بحاجة إلى أن أتحسس النيران كي أتأكد من اشتعالها.

عدت لما كنت عليه في سابق الأيام أقف بعيدا وأبقى على الحواجز الفاصلة بيني وبين الآخرين ولكن دونما حاجة إلى تجاهل رد تحيه أو إبداء وُدٍّ أو إظهار مجاملة مثلما يفعلون.

(سارة) امرأة تبدو في نهاية العقد الثالث من عمرها، مهندسة معمارية تعمل في تسويق المنتجعات والفيلات الفخمة والمجمعات السكنيه الراقيه "الكومباوند".

كنت أُعجب بأفكارها المتزنة وهدوئها وشاعريتها في زمن عزَّت فيه تلك الصفات، ولكن أكثر ما لفت انتباهي هو اهتمامها الواضح برحلات السفاري ما بين الجبال والصحراء والشواطئ.

أعجبني أن تمتلك امرأة في هذا العمر كل ذلك الاصرار والقدرة علي السير لمسافات طويلة وسط الرمال المرتفعة وعلى تسلق الجبال والغطس بين مجموعة أغلبها شباب في العشرينات من عمرهم.

سألتها مرة بينما تملؤني الشكوك إذا ما كنت جادا فيما أسأل أن تخبرني بموعد رحلتها القادمة، وسألتها إذا ماكان ممكنا أن أنضم إليهم في تلك الرحلة.

رحبت على الفور، ثم راحت تخبرني أنها صارت صديقة لمجموعة الشباب الذين ينظمون تلك الرحلات مرة واحدة شهريا علي الأقل، وأنهم يتداولون حول وجهتهم القادمة، وربما يشدون الرحال تلك المره إلى (دهب)، تلك المدينة الجميلة التي زاروها من قبلُ، وأخبرتني كم تعشقها مثلما يعشقها أصدقائها المنظمون لتلك الرحلات.

ثم راحت تفترض أنني لابد وقد زرت تلك المدينة من قبل ولابد وأنني أشاركها الرأي فيما تتمتع به (دهب) من جمال أخَّاذ وُزِّع بين شواطئها الزرقاء ورمالها الصفراء اللامعة وجبالها ومناظرها الخلابة وأجوائها الرائعة.

أخبرتها أنني قد زرت تلك المدينة قبل أكثر من خمسة عشر عاما وأنني آمل في زيارتها من جديد إذا ما كان ذلك متاحا، ولكنني قد أردت أن أُلمِّح إلى أنَّ ثمة شكوكا تنتابني حول قدرتي على أن أسير لمسافات طويلة أو أن أتسلق الجبال مثلما رأيتها تفعل فيما تنشر من صور علي صفحتها الخاصة؛ فأنا لم أعد شابا حتى أقوى على فعل ما يفعلون وإن لم أصر كهلا بعدُ.

فطمئنتني إلى أنني أستطيع أن أفعل بكل تأكيد: فقط التجربة تجعلك قادرا على القيام بما لم تتصور قدرتك على فعله -هكذا أخبرتني-.

ثم مضت تقول: إنها كانت تشعر من قبل بما أشعر به أنا الآن وأنها قد ترددت كثيرا قبل أن تقرر الذهاب في رحلات سمتها "هروب من الأجواء الخانقة" كتلك، ولكنها كما قالت أصبحت لا يمر شهر دون أن تقضي أياما في السفر تستعيد خلالها نشاطها وحيويتها.

الحقيقة أن ما أثار اندهاشي أن (سارة) ليست فقط امرأة يقارب سنها الأربعين فحسب، بل إنَّ جسدها الممتلئ -وإن لم يكن بدينا- جعلني أرى في قيامها بتلك الرحلات الشاقة أمرا ملفتا، لكنني أحببت ما بدت عليه تلك المرأة التي تجمع ما بين جمال ظاهر وإرادة صلبة فلا توقفها محطات العمر المتقدم عن امتلاك روح الفتيات.

أعجبتني قوتها وإصرارها ورُقِيُّ حديثها للوهلة الأولى، ولكنه بقي في حيز الإعجاب الذي علمتني التجارب أخيرا أنه دائما ما يكون خادعا في البدايات فلم أقدر ذلك الإعجاب قدر شيء هام؛ فأنا قد عرفتها بينما أحب وبقيت أعرفها حتى بعد أن صرت حبيبا قد هُجر.

فلما غابت لفترة أرسلت أسأل إذا ما كانت بخير لكنها وعلى غير ما توقعت كانت مريضة تنتظر موعدا يحل بعد يومين لإجراء جراحة في ظهرها.

أرسلت لي رسالة صوتية تسألني الدعاء لها بالشفاء، تألمت كثيرا لرسالتها التي بدا فيها صوتها متعبا حزينا.

قلت: ماذا بك؟

قالت: سأجري جراحة يوم السبت القادم للمرة الثالثة. أصبت في ظهري منذ ستة أشهر ولا زلت أعاني تلك الإصابة. أشعر بآلام تقتلني، فقط ادعُ لي من قلبك.

تملكتني الدهشة: فماذا أدراها بقلبي؟! هل أبدو رجلا طيبا حتى لأولئك الذين لم يروني ولم أراهم من قبل؟! هل أبدو كمن يستجيب الله لدعائه؟! وما الذي يدعو امرأة لا أعرفها أو تعرفني على نحو جيد إلى أن تسألني أن أدعوَ من أجلها؟! لماذا ترسل لي رقم هاتفها لأطمئن عليها في أي وقت وكلما أردت مثلما أخبرتني بودٍ.

بدت لي (سارة) امرأة جديرة بالثقة منذ أن بدَّدَتْ إحباطي في لحظة انهيار تام مرت بي بعد أن هجرتني (داليا). لم أخبرها قط عن سبب حزني الذي أحستْه لما هاتفتها بعد ذلك الهجران بأيام قليلة -وكنت لا لأزال محطما- وإنما ادعيت أنني قد فقدت شيئا ثمينا للغاية لا يمكن تعويضه لمَّا سألتني: لماذا أنت حزين؟

وقد رجتني ألا أحزن على شيء فقدته، وأخبرتني واثقة أنني لابد وسأنال ما هو أفضل، وحسب ما توقن فإن الأشياء الجميلة في كل مكان والافضل لم يأتِ بعد. وتمنت ألاَّ تبدو تلك النبرة الحزينة في صوتي ليوم آخر.

قالت: أعلم تماما أنك تستحق أشياء جميلة، لا تسألني كيف لي أن أعلم ذلك بينما نحن لم نلتقِ من قبل، ولكنك يجب أن تكون على ثقة في أنني أعرف الناس جيدا، وأن بإمكاني تمييز الطيب من الشرير، الغث من السمين؛ لست صغيرة حتى انخدع فيما يسوق البعض من خداع، أستطيع تمييز الصادق وكشف المخادع والأفَّاق. كن على ثقة فيما أقول فحسب، لأنك تستحق ما هو أفضل فلا تحزن على من غادرتك أو علت من فقدت؛ فإنه هو من فقد لا أنت!

لم أرد على ما قالت. ولم أستطع أن اقول شيئا؛ فقد أحسست بحزن عميق وبالكاد أخفيت نبرة أكثر حزنا همَّت أن تَقْطُرَ حزنا من بين شفتيَّ وإن أفلت بعضٌ منها فسقط في رَدَاءة ضحكة مصطنعة.

حزنت على نفسي كثيرا وأحسست بالأسى من أجل (داليا)؛ فأنا لم أكن أستحق أن أُهجر لسبب بقي غامضا لم أعرفه. و قد بقيت أعيش صراع البحث عن ذلك السبب المجهول لِمَا لقيت من نكرانٍ مِنْ مَنْ لم أنتظر أن تنكرني أبدا.

و لما أجبرتني أحزاني على الصمت للحظات. وبعد أن أخجلني إطراؤها وصدق كلماتها لم أجد إلا أن أشكرها وأطمئنها أنها ستكون بخير قريبا جدا وأنها يجب أن تكون بخير من اجل صديق سيصلي من أجلها.

و قد استُثِيرَت قوتي الكامنة. فصرت أصدق أنني أستطيع السير في الصحراء لمسافات طويلة وصرت أتهيأ لتسلق الجبال أيضا. وتمنيت عليها ألاَّ تخيب أمله وتبدد رغبته في خوض تجربة السفاري غير مأمونة العواقب التي حضرت لتوها.

وكنت أضحك بينما أخبرها بذلك. وكنت أشعر بامتنان كبير لتلك المرأة التي ظهرت دون موعد لتواسيني دون أن تعرف ما يسكن في قلبي من جروح وما يشتعل في نفسي من لهيب.

سميت مساندتها لي في ذلك اليوم "طبطبة".

وكان أن اخبرتها لما تحادثنا بعد أن أجرت الجراحة وتماثلت للشفاء أنني لا أنسى ذلك اليوم الذي فقدت فيه شيئا ثمينا ولم أنسَ مساندتها و"طبطبتها" حتى انتشلتني من بعض أحزاني.

أما هي فقد اندهشت لما اقول وكان اندهاشها مبررا؛ فهي قد ظنت أنني قد فقدت شيئا ثمينا حقا مثلما أخبرتها وقد أرادت أن تُنسيني ما فقدت كي اتجاوزه. فراحت تذكرني بأنني من يصنع الأشياء الثمينة وأنني من يملك أن يصنع بديلا لما يفقده. وبالتأكيد لم اكن لأخبرها عن حقيقة ما فقدت وإن بقيتُ ممتنا لتلك المرأة وما أبدته لي من مساندة صادقة.

وقد جعلت لها في صدري مكانة تليق بعطفها، فصرنا نتبادل أحاديثَ هاتفية وبعض الرسائل القصيرة على فترات متباعدة دون تخطي حواجزَ صداقة ربما لم تنشأ بعدُ.

فأنا لم أعد انا الذي اعرفه ولا عاد قلبي يتعافى من جراحه المُثْخَنَة بعد أن أثقلته الصدمة وأدماه الخداع وصار بالكاد ينبض، ينبض من أجل أن تستمر حياته وحياتي لا من أجل أن يحب امرأة غير (داليا).

(9)

مرت أسابيع قليلة منذ انتهت علاقتي بـ (داليا)، ولم يبقَ لي من أيامها سوى ذكريات حزينة، رسائل وصور محفوظة في هاتفي وشمعة برائحة الياسمين وشمعدان زجاجي ملون مصنوع بيد فنان أبدع الوانه ورسوماته

كنت قد اقتنيتهما منذ بضعة أسابيع وبقيتا محفوظتين في رف علويٍّ بخزانة ملابسي من أجل أن أهديهما إليها بمناسبة حصولها على درجة الدكتوراه بعد أن عاتبتني بحدة مكتومة ذات يوم -قبل افتراقنا- مدعية عدم اهتمامي بالسؤال عن نتيجة درجتها العلمية ساخرة من إنكار علمي بتوقيت إعلانها من قبلُ.

فلما ذكَّرتها بأنها كانت غائبة كعادتها وبأنني كنت في ذلك الوقت قد بدأت أستشعر أنها لم تعد راغبة في بقائي وأنني لم اكن أعرف ما المسموح لي بالسؤال عنه وما هو غير مسموح.

كانت تخبرني بمرارة بأن تلك كذبة كبيرة وبأنني لا أرى سوى ما أريد رؤيته ولا أسمع إلا صوتي ولا أصدق سوى ما أكتب.

- أنت تتخيل أنني كنت أضيق بوجودك وتتخيل أنَّ تقربك منى واهتمامك بي كان تنازلا من جانبك وأن في اقترابك ما يمس كبرياءك و كرامتك. أنت مخطئ؛ لم أرَ في اقترابك ومساندتك لي ما يمس مكانتك بل كان تقربك يزيدني قربا.

لكن ما قالته لم يكن صادقا وأنا أُوقن بذلك؛ فإذا ما كان تقربي منها واهتمامي بها كان يقربها كما تدعي، فلماذا كانت تبتعد يوما بعد آخر؟!

- تلك هي الكذبة الكبيرة يا عزيزتي. فلماذا إذًا ابتعدتِ إذا لم يكن تقربي قد أبعدك؟!

قالت:

إنما هو لومك وعتابك المستمر ما تسبب في ابتعادي؛ فلم أكن أقوى على تحمل انتقادك وتوبيخك الدائم لي، لست أستسيغ اللوم ولا أحب العتاب. اشعرني عتابك الدائم أنني ارتكبت جرما، كان غيابي رغما عني، فلما لم تعد تلتقيني إلا معاتبا فقدت إحساسي بالحب ولم أعد أرى نفسي إلا مخطئة لا يرضيك شيء أفعله ظننتني لم أعد أعجبك فكرهت أن أرى نفسي امرأة أخرى غير تلك المرأة التي كنت شغوفا بحبها.

فلما لم أعد أقوى على الاحتمال أخبرتك، لكنك لم تفهم كيف كُنت تشرع في تجريحي يوما بعد يوم، كانت كلماتك القاسية تقتل بقعة من حبك في قلبي كل مساء، فلما لم أعد أقوى على الاحتمال أخبرتك برحيلي وأردت أن نُبقي على ما بقي لنا من ذكريات جميلة عشناها، لكنك لم ترد البقاء فرحلت. لست أكرهك ولكني متعبة.

قلت: أردت فقط أن أحضر لك ما اقتنيت من أجلك في وقت سابق، دون أن يعني ذلك شيئا بالذات. أنا أيضا لست أكرهك، أردت أن تسعدي للحظات بما اخترت لك من مقتنيات أوقن تماما أنك تحبينها.

- أذكر بامتنان يوم أن أحضرت الدواء من أجلي وأحطتني بعنايتك واهتمامك، بإمكاننا تبادل التحية اذا لم يكن في تبادلها ما يزعجك؛ فلسنا أعداء على أية حال.

ولما لم يكن بإمكاني أن أطلب مقابلتك حتى لا تُسيئين فهم ما أردت، فقد أحضرتها لك في المستشفى في موعد تواجدك المعتاد وقد حضرت في الموعد لكنك لم تكوني هناك.

أنتِ حتى لم تخبريني أنك لن تذهبي اليوم، فصل آخر من الإهمال واللامبالاة، اندفعت أبتلع غضبي وعدت إلى منزلي محملا بما كنت قد أحضرت لكِ.

فلما كنت أهم بإغلاق باب المصعد لم أنتبه لما كنت أحمل في يديَّ، فاصطدم الباب بالشمعدان الزجاجي فانكسر فأيقنت أنَّ شيئا لم أكن أفهمه قد وقف حائلا بيني وبينك على الدوام، لكنني شخص يعاند حتى نفسه ولا يؤمن بأقدار تمنع وتمنح؛ إنما يؤمن بإرادته وحسب.

فلما كان لقاؤك يستغرق أسبوعا حتى يحل اليوم ذاته في الأسبوع القادم تجاهلت ما حدث ولم أشأ ان أخبرك به، وملت إلى تأجيل قرار لقائك من جديد؛ فقد كان هناك متسع من الوقت لتقرير إذا ما كنت سأحضر لك شمعدانًا جديدا، وإذا ما كنت سأحضر في الأساس، وإذا ما كنت سأكتفي بتقبل ما قررته الأقدار فأتوقف عند ما أرادته.

ومرت أيام خمسٌ كنا نتبادل خلالها رسائل تحية مقتضبة بلا معنى، وكان ذلك يزيدني نفورا؛ فأنا لست ذلك الرجل الذي يفعل ما لا يحسه ويستشعره ولست أهوى العلاقات العابرة.

ولكنني قررت في صباح اليوم السادس ودون سبب مفهوم أن أنتقيَ لك شمعدانا بديلا، فلما لم يكن الوقت كافيا لأن يضع الفنان رسما وألوانا فوق سطح الشمعدان الزجاجي الجديد، فقد قررت أن أهديَك إياه بلا ألوان أو رسم واستعضت عن ريشة الفنان بكتاب ضم الأعمال الكاملة للشاعر الراحل أحمد فؤاد نجم، ثم حملتهم إليك من جديد.

وجدتك هناك، قابلتني بابتسامة وحُنُوٍّ غابا عنك طويلا، واقتربتِ بعد أن غَلَّبْتِ الابتعاد في كل لقاءاتنا الأخيرة وسألتني: كيف أنت؟

قلت: فقد كل شيء معناه في غيابك، لم أعد لأستشعر أن ثمة شيئا في هذه الدنيا ذا قيمة.

- لكنك لا زلت جميلا، قمر مكتمل.

- بل أنتِ القمر الذي غاب وها هو يعود.

- هل ذهبتَ إلى المسرح؟

- لم أعد أذهب إلى أيّ مكان كنت ترافقينني في الذهاب إليه. ولمَّا غبتِ لم أعد قادرا على تجاوز ذكريات الأماكن التي جمعتنا معا، فكنت أتجنب ارتيادها بمفردي حتى لا تؤلمني وحدتي بينما أجلس في قاعة العرض دون أن تكوني إلى جواري ودون أن تتشابك أيدينا مثلما اعتدنا.

نظرتِ إليّ بعين الشك وكأنكِ لا تصدقين ما قلتُ أو أنني قد جاوزت بعض الحقيقة. ولما كنت أهم بالانصراف اقتربتِ قليلا، صافحتني بود وابتسامة غابتا طويلا وشكرتِني لِمَا أحضرت من اجلك.

لكنني ذكَّرتك بأنك كنتِ يوما طبيبتي التي حملت الدواء من أجلي عندما كنت مريضا، وأنني لن أنسى لك ذلك ما حييت، فلما عدت ترسلين لي وتسألين عني ظننت أنَّ جبال الجليد التي أقمت بيننا قد ذابت. كنت أستشعر اقترابك من جديد لمجرد أنْ دبَّ الدفء في كلماتك التي ترسلينها، فغدوت أقترب منك شيئا فشيئا، وكنت أظنك تقتربين مني أيضا. وبينما كنت أحكي لك عن قصة إعلان مصوَّر شاهدته أخيرا حيث يجلس شاب في أحد المقاهي الباريسية وفي يده جريدة وكان الجو ممطرا وكَوَّنت الأمطار بعض البرك الصغيرة في

الشارع المقابل للمقهى، وإذ ظهرت فجأةً فتاة جميلة التفت إليها الشاب، ولما كانت الفتاة تسير في الشارع استوقفتها إحدى البرك الصغيرة فلم تستطع عبورها لتواصل السير، وهنا ينهض الشاب متجها نحو الفتاة وإذا به يخلع سترته ويغطي بها بركة الماء حتى تعبر فوقها، فلما عبرتها -وكان الشاب لا يزال يسير إلى جوارها- استوقفتها بركة مياه أخرى فخلع قميصه وغطَّى بها البِرْكَة فعبرت فوقها الفتاة.

ثم بِرْكَة أخرى فيخلع الفتى سرواله تلك المرة ليغطيها فتعبر الفتاة فوقها من جديد ثم اصطحب الشاب الفتاة إلى حيث يحتسيان الجعة بينما لم يتبقَ له سوى لباس قصير يغطي به سوءته. وبينما تتناول شرابها تتساقط بعض القطرات فوق سطح المنضدة وهنا يخلع الفتى ما تبقى له من ملابس ليجفف ما تساقط من قطرات لأجلها.

سألتك إذا ما كنت قد رأيت ذلك الإعلان، فلما أجبتني: نعم رأيته،

قلت لك: لكم أتمنى لو أنها تمطر الآن بينما أنتِ تسيرين فأفعل مثلما فعل الشاب.

كنت حالما أكثر مما ينبغي وكان تقديري لما تُبدينه من شوق ورغبة في العودة غير واقعي، و لعلها المرة الأولى في حياتي التي أسيء فيها تقدير شيء ما، بل و يخدعني إحساسي تجاه ما يخفيه شخص ما تجاهي.

أجبتِني برصاصة قاتلة أطلقتِها صوب قلبي دون رحمة:

لم يعد هناك شيء يربط بيننا حتى تفعل معي مثلما فعل ذلك الشاب مع الفتاة.

فلما لم أقوَ على أن أجد ما أقول من كلمات، صمتُّ طويلا ثم تماسكت مبتلعا ما اعتراني من ألم ثم ادَّعيت أنه كان مجرد تصرف رجولي كنت لأسلكه بالتأكيد إنْ أنا رأيت المطر يتساقط فوق رأسك أو

أنَّ إحدى بِرَكِ المياه قد استوقفتك عن إكمال المسير إلى حيث تذهبين.

ثم استطردتِ: لكنه موقف حالم لامجال لحدوثه في بلادنا أو في مدينتنا التي يَعِزُّ فيها تساقط الأمطار.

فلما أحسست قدرا كبيرا من التعالي في كلماتك توقفت عن الكتابة إليك وكان أنْ ذهبت بعيدا مصطحبا آلامًا أعجزتني عن تحملها وشرعت أُوَبِّخ نفسي على ما فعلت بها أياما طويلة حتى كدت أقتلها، وغدوت ألعن سذاجتي وإفراطي في تقدير مشاعر من لا مشاعر لها.

وكنت أتعجب لحالي وكيف أنني قد ظننت أنَّ ما فرّق بيننا لم يكن سوى مجرد خلافات صغيرة وأنَّ غياب التفاهم واختلاف طبائعنا قد صنع تلك الخلافات، فلما كان عمر علاقتنا قصيرا لم يتجاوز أشهرًا قليلة، كنت أُبَرِّر أزماتنا وأصورها وكأنها أزمات صغيرة لن تنال من مشاعر الحب الذي يجمعنا.

أنتِ قلت لي ذلك مرات كثيرة:

لن يفرقنا شيء، اطمئن، ستمر الخلافات دون أن تنال من حبي لك، سيبقي حبك في قلبي ما حييت لن يُذهبه شيء، فقط، اترك الأمور تجرى على أعنتها، ستنقضي حتما كل أزمه وتمر؛ فما بيننا أكبر وأعظم من أية خلافات.

ذاك بعضٌ مما كتبت لي، أقرأه بعينيَّ كلما هممت بفتح رسائلك وكلما أردت أن أفهم ماذا بدد مشاعرك وأين ذهبت وعودك، لكنني عجزت أن أصدق أنك كنت تحبينني حقا.

فهل كنت صادقة فيما تقولين؟

أكاد أجزم الآن أنك امرأة بعاطفة فتاة مراهقة لم تنضج بعد؛ فمشاعرك التي انتابتك لا تعدو أن تكون عَرَضٌ من أعراض حمى البدايات التي تصيب المراهقات في سن الخامسة عشر.

أما أنا فقد أخبرتك مرارا أنك أنت حب العمر الذي أُريد له أن يزورني متأخرا ولست أنوي أن أُفلته أو أدعه يهجر أبدا. سأحبك دائما و لن يغيرني شيء.

فلما تبدلتِ لم تتوقفي عند حدود تبدلك، بل غدوت توجهين لقلبي الطعنات القاتلة واحدة تلو الأخرى وكأنك لم تتوقفي عند تبدل مشاعرك فحسب بل أردتِ أن تقتلي حبك في قلبي أيضا.

فلما وجدتني متمسكا بهذا الحب رغما عني وعنك لم يرق لك ذلك، فاخترتِ أن تتجاهلي وجودي حتى تجرحي كبريائي فأكرهك وعندها أبادلك التجاهل بتجاهل وأبادلك التجريح بتجريح وأرد إليك الطعنات بطعنات.

لكنني أبدا لم أكن لأفعل ما دفعتني دفعا لفعله: فقد أردت أن أبقى دائما هناك، ربما في ذكرى تحضرك في كل مكان تذهبين إليه أو في كل سطر تقرأينه في كتاب تتشابه كلماته مع روح كلماتي أو تطابقها، في كل ضحكة تشبه ضحكاتي الباردة حين يكتمل القمر وحين تطلين من شرفة منزلك الصيفي فتلمحينني مختبئا خلف الشجرة أحرسك رغما عنك أو ربما عند شاطئ البحر الذي تكرهينه. سأبقى في مكان ما في حياتك، أقفز منه إلى مخيلتك إن أردت أن تستحضري الدفء أو تبعثينه في لياليك الباردة. سأظل رغما عنك أدفع كوابيسك المزعجة وسأُقَبِّل وجنتيك حتى تهدئي.

وسُألقي في نومك أحلاما وردية وفي أنفاسك رائحة زهور البنفسج، ستذكِّرك كل ذكرى بأنك لأبدا لم تستحقي ذلك القلب، ستذكرك

بأنك من غاب عقلها وضل قلبها وبأنك من غلَّبت انتقامها على حكمتها، و آثرتْ اندفاعها على تأنيها وسلطت غرورها على طيبتها، فاخترتِ أن تقتلي الحب في قلب من أَحَبَّك حبا عظيما.. من أحبك ربما أكثر من ما أحببتِ أنت نفسك.

(10)

كنت قد طلبت إلى (سارة) قبل موعد السفر بأيام قليلة أن تصطحبني في إحدى رحلات السفاري التي اعتادت أن تقوم بها مع مجموعة من الشباب والشابات المولَعين باكتشاف الطبيعة وتغيير ألوان جلودهم وخلع ما يحملون في أنفسهم من هموم.

فجاءتني بخبر عن رحلة جديدة ينوون القيام بها، وكنت قد فتحت هاتفي في الصباح فوجدت في صندوق بريدي الإلكتروني رسالة بصوتها تقول:

أُعِدُّ حقيبة سفرك؛ فلقد حجزت لك مكانا في رحلتنا القادمة. إذا كنت لا تزال مترددا في الانضمام إلينا فاستمع إلى الرسالة التالية، فلما رفعت صوت هاتفي الذي أصابه الخرس في أيامه الأخيرة سمعت صوتا هادئا لشاب عشريني يقول:

صباح الخير. ننتظرك فلا تتردد، لاشيء يدعو للقلق. رأيت صورتك فلم أرك إلا شابا، فلماذا تظن أنك لن تستطيع السير لمسافة طويلة؟! من أخبرك أنك لن تقوى على التسلق لارتفاع منخفض أو أنَّ النوم سيغلبك فلن تسطيع مقاومته لتقضي معنا سهرة بدوية في الصحراء محاطا بالفضاء الشاسع والنجوم المتلألئة والقمرِ بينما نُشعل حطبا كي يبعث الدفء في المكان! أثق أن المبيت في خَيْمَةٍ تجربة ساحرة تستحق المحاولة، سنكون بانتظارك فلا تخلف موعدك. (رامز).

ارتحت لكلمات ذلك الشاب الذي لا أعرفه؛ فقد بعث في نفسي ثقة افتقدتها ولكني مع ذلك بقيت مترددا غير واثق في قدرتي على السير لمسافات طويلة أو التسلق بضع درجات، ورغما عني عدت لذكريات سنوات طويلة مضت اعتدت خلالها ألا أخشى شيئا، بل كنت أفعل ما هو أكثر جرأة واندفاعا وتهورا من دون خوف.

استعدت ذكرى أيام قضيتها في منتجع aya napa في جزيرة (قبرص) وتذكرت كيف أنني لم أكن أخشى أن أكون معلَّقا من خصري وظهري بحبل طَرَفُه الآخر مربوط في بكرة بإحدى المروحيات الصغيرة التي تتخذ لها موضعا يبعد قليلا عن الشاطئ فوق البحر. كان الحبل يَقْصُر عندما تدور البكرة لِلَمْلَمَتِه وكانت تُفلته دفعة واحدة في مرات متتابعة، فكنت أصعد وأهبط بسرعة كبيرة حتى إذا ما ظننتي صاعدا حتى باب الطائرة، فإذا أنا أُلقَى بسرعة كبيرة و قد أفلت الحبل فأغطس في الماء. تذكرت كم كان عددهم قليلاً من يمتلكون الجرأة لممارسة تلك اللعبة.

ثم سافرت بذاكرتي إلى الباخرة التي كانت تُقلني في رحلة إلى جزيرة (رودس) وكيف أنني كنت أستهوِي الجلوس فوق مؤخرة تلك الباخرة عندما تبحر فلا أرى سوى ماء البحر على المدى الذي تنكسر رؤيته فقط عندما يلتقي السماء في الأفق البعيد، وكانت ساقايَ تَعْلُوَان دوامة الماء التي كان يُخَلِّفها شقُّ الباخرة لماء البحر بينما أنا جالس أستمع إلى الموسيقى الرومانسية.

أين ذهبت إذًا جرأتي وصلابتي، هل قتلتهما هي أيضا، هل صرت عاجزا حتى عن السير لمسافة طويلة؟ هل صرت أخشى أن أتسلق درجات قليلة في جبل أو أن أبيت في خيمة بعد أن كانوا يُلقون بي من طائرة، ما الذي أصابني؟!

عدت من جديد إلى هاتفي أفتح الرسالة الأخرى التي تركتها (سارة) وكانت بصوتها تلك المرة، أعجبني صوتها الحالم الرخيم؛ ولِمَ لا وهي أنثى سرطان؟

قالت بينما رنت ضحكتها بعذوبة: استمع إليَّ جيدًا، سنسير قدر استطاعتنا فإن أحسست بالتعب فستجدني قريبة منك، فأنا ما إن أشعر بالتعب حتى أستريح قليلا ثم أستأنف السير مرة أخرى.. اطمئن؛ فلا توجد عفاريت قرب مخيماتنا. أتفهم ترددك، وقد مررت بحالة مماثلة من التردد، ولكنك ما إنْ تهزم ذلك التردد في المرة الأولي حتى تتحول إلى عضو دائم في كل الرحلات القادمة. يوما ما سترسل لي رسالة صوتية مثل تلك التي تسمعها الآن توصيني فيها ألاَّ أستسلم للمرض وأنك قد حجزت لي مكانا في رحلة وادي شيطان. إنه الاسم فقط ما يثير الخوف لكن اطمئن، لا شياطين هناك ولا عفاريت.

أطلقت ضحكة طويلة مفعمة بالأنوثة وبالكاد أوقفتها حتى تُختم رسالتها:

الآن أنتظر ردك بالإيجاب بالطبع. سلامٌ.

عفاريت! كنت أبتسم بينما أستمع إلى تلك الجملة، بل إنني ما إنْ أعدت الاستماع إلى تلك الرسالة من جديد وما قالته عن العفاريت حتى ضحكت وتعالت ضحكاتي وكانت غريبة، فكانت من القلب لأول مرة منذ وقت طويل. واستعدت ذكرى رؤيتي لقبطان عفريت أوعفريت قبطان في الباخرة اليونانية "كوين اليني" التي استقلَلْتها في طريقي إلى جزيرة (باطموس ومكينوس) اليونانيَّتين قبل أعوام. كنت أتجول في الباخرة ليلا وكانت هناك شرفة صغيرة مظلمة تقع في منتصف الباخرة إلى اليمين وكان أمام الشرفة ممر وأسفلَها إلى اليسار دَرَجٌ يقود إلى الطابق السفلي من الباخرة وهو الطابق الأول الذي يضم مطبخا

ومخبزا كنت قد اعتدت أنْ أختلس منهما قطعًا صغيرة من العجين الطَّازَج الذي تحبه الأسماك، وكنت أُلقي بقطع العجين إلى الأسماك التي أراها بوضوح عبر ماء البحر النقي الشفاف عندما ترسو السفينة فتتجمع أسرابٌ منها لتأكل مما ألقيت لها. أما باقي الممر في الطابق السفلي فيقع به عددٌ من الغرف المتجاورة الصغيرة.

أذكر أنني قد دخلت إلى إحدى تلك الغرف يدفعني الفضول، فلما سرت خطوات إلى أن وصلت إلى جانب الغرفة المقابل للبحر، وجدت في جزء من ذلك الجانب شباكا زجاجيا دائريا محاطا بطوق حديدي شديد الصلابة و قد تُرك مفتوحا -كان ذلك في يوليو حيث كانت الأجواء صيفية- فلما دنوت منه وأخرجت إحدى يديَّ من تلك النافذة أمكنني أن ألمس سطح الماء بسهولة؛ فقد كان سطحه قريبا جدا من متناول يدِي.

وفي طريق عودتي إلى الطابق الثاني حيث أُقيم في إحدى غرفه، ارتقيت درجات السُّلم التي قادتني إلى النزول إلى المخبز وإلى الغرف الصغيرة. سرت خطوات إلى اليسار باتجاه الشرفة الصغيرة في البقعة المظلمة ووقفت أمامها أنظر إلى ضوء القمر الهلالي المنعكس فوق صفحة الماء، وقد كان ضوؤه باهتا ضعيفا حجبته الطوابق الأربعة الأخرى التي تعلو طابقي الذي أُقيم فيه، وحيث كان القمر قد استقر منكمشا في الاتجاه الآخر من السفينة. أشعلت سيجارة واستندت إلى حاجز الشرفة الحديدي المطل على البحر وقد لفحتني نسمة هواء رائعةٌ فلم ينتبْني ملل ولا تسرَّب إلى نفسي خوف حتى بعد أن ازداد خفوت الضوء من حولي وأوشكت سيجارتي على الانتهاء.

فلما انتهت ألقيتها في البحر وقررت العودة إلى غرفتي بعد أن هدهدت النسمات أضلعي وتملك مني التعب بعد يوم حافل باللهو

والشراب مع الأيرلندية الجميلة (إيزابيل)، الفتاة التي كانت تسكن الغرفة المجاورة.

فلما استدرت وسرت خطوات حتى غدوت على مشارف الدرج وقع ناظريَّ إلى أسفله فرأيت ما رأيت، كان رجلا بلا ملامح وبلا أذرع يرتدي زي قبطان يصعد درجات السلم في طريقه نحوي. خِلْتُني أتخيل ما رأيت وظننت لثوانٍ أنني ربما أفرطت في شراب الفودكا، فلما استفقت من صدمة ما رأيت بعد أن عدتُّ أدراجي أمام الشرفة استجمعت قواي من جديد .. وكيف لا أفعل وليس أمامي سوى أن استجمعها حتى أستطيع أن أعبر بجوار الدَّرَج اللعين لأصل إلى غرفتي.

وارتحت لظنوني التي أقنعتني بأنني إنما أتخيل ما رأيت، وبأنَّ الإفراط في الشراب قد لعب برأسي وبأنني لا ينبغي أن أفرط في الشراب مجددا؛ فالتجول في طرقات السفينة وغرفها في ساعات الليل المتأخر أمر لا يفعله سوى شخص مختل أو مخمور.

والآن لأستدير في هدوء و ثقة فلا شيء هناك. وما إن هممت بالاستدارة حتى وجدت القبطان العفريت في آخر الممر المقابل لي علي الجانب الآخر، وما إن وقعت عليه عينايَ حتى إسرع بالسير في خطوات نظامية نحو الدرج، ثم راح ينزل الدرج مسرعا جدا ثم يعود إدراجه في الجانب المقابل للشرفة فيقف إمامي ولا يلبث أن يعيد الكرة مهرولا مراتٍ ومراتٍ.

أذكر أنني قد تجمدت في مكاني وكان لا سبيل أمامي للإفلات من لهوه سوى القفز في البحر، ومن ثمَّ ينتهي بي الأمر إلى أن أسير عفريتا وربما صديقا مقربا من القبطان العفريت!

وبينما كنت أقف عاجزا مشلول الأطراف، هرع العفريت مهرولا إلى الطابق السفلي عبر الدرج ولم يعد. كان ثمة ضوء خافت قد أضاء

الممر المقابل إلى اليسار وكان الضوء قد اقترب حتى لمعت دوائره وبدت أكثر وضوحا. كانت تلك الأضواء الدائرية تنبعث من كشاف ضوئي يحمله رجل الساعة الذي يطوف السفينة كل ساعة واحدة ليراجع كل شيء في كل بقعة فيها، فربما شب حريق أو وقع اعتداء أو تعرض أحدهم لصدمة رؤية عفريت يتجول في رداء أبيض ناصع لقبطان راحل. وقد سلط رجل الساعة كشافه ناحيتي فرآني، وكنت عاجزا عن أنْ أتحرك أو حتى أتكلم، فلما اقترب مني كنت قد تجمدت كدمية خيال الظل التي يضعها الفلاح في حقله حتى لا تأكل العصافير محصوله. وكان العرق يتصبب من جبيني بينما تتجمد أطرافي فعجزت عن رد تحيته وعجزت أن أتحرك أو أتكلم فأشفق على حالي بابتسامة مطمئنة وأحسست من نظراته المتوجسة أنه يعرف كل ما جرى دونما حاجة إلى أن أخبره بما رأيت، وأيقنت لما اصطحبني إلى غرفتي ثم ألقيت بجسدي فوق سريري وتحت أغطيتي أنه لابد وقد رأي ما رأيت مرات عدة.

فلما التقيته في مساء اليوم التالي عندما حضر إلى غرفتي للسؤال عني، طمئنني بأنَّ القبطان العفريت ليس عفريتا مؤذيا على الإطلاق، فلما أحسَّ انزعاجي بينما كنت أستعيد معه ذكرى ما رأيت في تلك الليلة، أخبرني أن الباخرة التي نبحر على متنها كانت قديما سفينة حربية ضمن الأسطول الملكي البريطاني وأنها كانت قد تعرضت للإصابة بقذيفة ألمانية إبان الحرب العالمية الثانية، وقد أصابت القذيفة قمرة السفينة فقتلت قبطانها ومعظم ضباط طاقمها وانتهي الحال بالسفينة المصابة إلى أحد أحواض تجديد السفن في ميناء (بريوس) اليوناني بعد أن اشتراها الملياردير القبرصي (جورج لويس) فأُعيد تأهيلُها لتتحول إلى باخرة مدنية لم يغب عنها قبطانها العسكري الراحل الذي تحول إلى عفريت يجوب أرجائها في ساعات الليل المتأخر.

عدت إلى شاشة هاتفي من جديد بعد أن أنهيت رحلتي القصيرة إلى الماضي وقت أن كنت أجاور العفاريت، وسألت نفسي: ماذا لو أنَّ عفريتا كان يسكن بالقرب من خيمتي؟! فلما توارد إلى خيالي ذلك السؤال ضحكت من جديد، ولكنها لم تكن تلك الضحكة الصافية التي أطلقتها منذ لحظات، بل كانت قصيرة ومترددة: فأنا لا زلت غير واثق من أنني قد عبرت مخاوفي أو أنَّ بإمكاني أن أذهب إلى تلك الرحلة بينما غاب عني إحساس السعادة؛ فأنا لم أعد ذلك الجريء المتهور الذي عاش كثيرا من لحظات الصدام والاندفاع قبل عقدين من الزمان، ولم أعد ذلك القوي الصلب الذي خُيِّل إليه أنه قادر على محاربة العالم من أجل مَنْ أحب قبل مرور ثلاثة أشهر.

لا، لم أعد قادرا على الحرب ولم أعد قادرا على السير في الظلام ولم أعد قادرا على قطع المسافات سائرا على قدميّ وإن رافقتني المرأة الرقيقة؛ فأنا لا زلت غير قادر على أن أرى امرأة أخرى غير (داليا). أرهقني حبها وقتلني فقدانها وأهلكتني محاولاتي الفاشلة لاستعادتها، ولم يعد هناك مِرْفَأ ولم يعد هناك معنىً ولم يعد هناك ما أحيا من أجله، تلك هي الحقيقة التي فشلت في تجاوزها.

وإذًا فلا داعي للانشغال برحلة تنطلق بعد ثلاثة أيام: أنا لست مضطرا إلى أنْ أتخذ قرارًا فوريًا في هذا الشأن طالما أُبقي على عادتي السخيفه في التباطؤ حيال أتفه القرارات، فغالبا ما أتخذ قرارات ما قبل التردد في اللحظة الأخيرة. اعتدت أن أفعل ذلك، فلماذا أغير عاداتي الآن؟!

لأنتظر، فربما قررت الأقدار ما ينبغي عليَّ فعله في تلك المرة كما اعتدت مؤخرا وربما قررتْ أن تفعله نيابة عني بإرادتها .. ليس ثمة فارق كبير.. ليتها تفعل شيئا .. أي شيء .. غير الصمت.

(11)

بدت (سارة) وكأنها قد فشلت هي الأخرى في الهروب من ذكريات جمعتها بحبيبها الذي هجرها منذ وقت قريب. ظنت في السفر ملهاة فغرقت حتى أذنيها في المأساة فلم تقوَ على تخطي آلامها رغم محاولاتها الانغماسَ في نشاطات بدنية ترهقها بل وتؤلمها أحيانا علَّها تنشغل عما يمزق قلبها.

وهي تشبهني كثيرا فكلانا يصير مجذوبا أذا أحب، مجنونا إذا هُجر لكنَّ ذلك هو المصير الذي ينتظر الطيبين من البشر.

فلما كنت بطبعي صامتا عن الكلام معظم الوقت وبخاصة عن حكايات الحب وجراحها كنت أجد نفسي عاجزا عن فعل شيء من أجلها في وقت أحتاج فيه لمن يفعل أشياء من أجلي؛ فأنا لست سوى محطم يحتفظ بابتساماته رغما عنه، يواري متاعبه خلف وجه باسم ويعجز عن التواصل مع من يحيطيون به.

نصحتها أن تحاول النسيان وهكذا نشترك جميعا في سوق الأكاذيب والادعاء، بل ونطلب أن يفعل الآخرون ما لا نقوى على فعله، لكنني كنت أظنها امرأة مكتملة الأنوثة، ورأيته واجبا أن تحفظ كبرياءها وتصون كرامتها فلا تبدو كمن يتسول الحب. فمنذ قدومنا إلى هنا لاحظت أنها لم تَلق اهتماما من حبيبها فلا هو هاتفها ولا حتى أرسل لها رسالة، وكان حريًّا برجل شديد الغيرة -كما أخبرتني- أن يفعل

ما هو أكثر من ذلك، ولكن يبدو أنهما قد وصلا إلى المحطة الأخيرة في علاقتهما الطويلة التي دمرتها الغيرة، والآن غاب اهتمامه ب(سارة) فلم يعد يغار عليها وهو ما بدا معه أنَّ حبهما قد حط عند خط النهاية.

وكنت أتساءل: هل دمرت الغيرة أيضا علاقتي ب(داليا)، هل أسأت لها بعصبيتي بل وبثورتي أحيانا، أم أن اهتمامي البالغ بها قد غيبها؟!

ولِمَ لا وهي كنساء كثيرات يغيبهن الاهتمام. أذكر وقت أن كنت منشغلا عنها في البدايات كم كانت مولعة برؤيتي والاستماع إلى كلماتي، بل أذكر تلك الرغبة الجامحة التي كانت تقتلها كي تقترب مني لتلامسني قبل أن تُلْقِي برأسها فوق صدري. لكنَّ ذلك كله قد غاب حتى اختفي لما زاد اهتمامي بها، فلما صرت أغار حين تغيب وأبدي لها ولعا وعشقا فتر شغفها، ولما لم يعد هناك أمر غامض يستدعي التطلع أو يثير الغيرة أو يَبْذُر الشك هدأتْ وصارت كحجر مصمت لا روح فيه؛ ذلك أنها تعشق الغموض وقد بدد وضوحي المفرط شغفها وأذهب تطلعها لمعرفة أدق التفاصيل، تلك التفاصيل التي يبدو أنني قد أفرطت في سردها حتى لم يعد هناك فصل مشوق.

قالت (سارة) مستدعية ابتسامة:

ها نحن نعود دون أن يضمد الشقاء جروحنا، لكنني سعيدة أن تعارفنا عن قرب وإن حزنت أنك لم تشاركنا جولة الغطس في اليوم الأخير.

قلت ضاحكا: أترانا كنا بحاجة إلى مزيد من الغطس؟

فانفجرت ضاحكة لما أدركت معنى ما قلت، ولما كانت ضحكتها عالية رنانة لم يبدلها إلى صرخة انزعاج إلا ذلك التوقف المفاجئ للحافله قرب إحدى نقاط التفتيش. إنه السائق البدين المتعافي

يتوقف بحافلته فجأة مرة أخرى ثم يُتبع توقفه بابتسامة بلهاء تليق بسائق لا يعلم كثيرا عن نقاط التوقف الإجباريه على طريق خطر.

فلما استأنفنا سفر العوده قلت لها:

أتدرين، لقد أخذها الكبرياء والتكبر وبدت نادمة لأنها هاتفتني بعد أن هجرتني بشهر كامل، وعلى الرغم من أنني قد أجبت اتصالها فقد صمتَتْ ثم أنهت مكالمتها دون رد وتركتني للتساؤل كعادتها: هل هاتفتني بالخطأ؟!

قالت: خطأ! هل تظن ذلك؟! إن امرأة كامرأتك التي وصفت لا تخطئ في ذلك أبدا، ألا تفهم! إنها لا تزال تحبك، أرادت أن تُفهمك ذلك دون أن تتنازل عن كبريائها وأرادت أن تجعلك تقضي أياما تفكر فيها بعد اتصالها الهاتفي لاستعادتك من جديد. هل هاتفتها؟

- كلا، بالطبع لن أفعل، ولكنّ عيد ميلادها يحل بعد أربعة أيام.

- ألن تهنئها بتلك المناسبه ؟

- سأفعل بالتأكيد، فتلك قصة أخرى. سأرسل لها رسالة، ينبغي ألاَّ يتحول المرء لكراهية من يحب أبدا حتى وإن افترق عنه.

كنت كمن ينتظر بفارغ الصبر مرور الأربعة أيام، فإنى قد ترسخ في ذهني أنها أرادت أن نعود إلى سابق عهدنا، لكن كبريائها يمنعها أن تصلح ما أفسدته، فلما لم يكن يعنيني أبدا من عليه أن يبدأ بالحديث أولا، فقد أرسلت لها رسالة تهنئة بعيد ميلادها عند منتصف ليلة العاشر من نوفمبر، فاستقبلتها بفرح بالغ وقد أجابتني برسالة كتبت فيها:

- كم أنت رائع وجميل! ظننتك قد نسيت.

فأجبتها: في وجودك لا جميل سواك، و كيف لي أن أنسى؟! هل تقبلين هديتي؟

- يكفيني أنك تذكرت عيد ميلادي.

كنت قد أودعت هداياي في حقيبة، و كان من بين تلك الهدايا سلسلة فضية معلق فيها أول حروف اسمها وقد أردت أن أقابلها لأعطيها ما أحضرتُ من أجلها. وفي طريقي إليها قبل أن يحين موعد خروجها من عملها في المستشفى بلحظات، وكنت قد تأخرت قليلا وخشيت أن تكون قد غادرت، لكنني ما إن وصلت إلى هناك حتى رأيت سيارتها لا تزال في موضعها الذي اعتادت أن تودعها فيه إلى جوار المستشفى.

فكرت أنني إذا ما صعدت إليها فربما لا أتقابل معها وظننت أنها لابد وأن تكون محاطة بعدد من الأطباء خاصة في تلك الدقائق الأخيرة التي تسبق انصرافها؛ فغدًا هو يوم عُطْلَة وقد اعتادوا جميعا أن يودع بعضهم بعضا في اللحظات الأخيرة من دوام الخميس، فقررت أن أبقى علي بعد أمتار من المستشفى أنتظرها في سيارتي حتى تمر من ذلك الطريق الوحيد الذي اتخذت لي موضعا على جانبه الأيمن ثم أردت أن أهاتفها لأخبرها أنني أنتظرها، فلما هاتفتها لم تُجِبِ اتصالي. ولم تمر سوى دقائق حتى رأيتها قادمة فوقفت في الطريق أشير إليها فرأتني. توقفت فأقبلت إليها مصافحا لمَّا فتحت لي باب سيارتها الأيمن.

صافحتها لكنني لم أتجاوز حدود المصافحة ثم قدمت إليها حقيبة الهدايا وهنأتها من جديد ثم ودعتها دون أن أنطق وكأنني قد تحولت إلى جبل جليدي لم يُذب دفء يدها التي صافحتها أيا من ثلوجه.

ودعتها فقالت سأرسل لك عندما أعود إلى المنزل، فقلت لا عليك .. كما تشائين .. في أيّ وقت.

وكنت قد أردت أن أُعْفِيَها من إبداء الامتنان ومن رسائل الشكر التقليدية؛ فأنا غير مهتم لامتنان تبديه قدر اهتمامي بإسعادها وإن كنت قد بدأت أستشعر إحساسا غريبا لم ينتبني من قبلُ.

صرت أكثر هدوءًا و روية، و لم أكن متلهفا لتلقي رسالتها حتى إذا ما أرسلتْها بعد مرور ساعات من لقائنا كنت لا أزال باردا متجمدا و لم أكن سعيدا مثلما اعتدت أن أكون عندما تكون قريبة وكنت لا أزال متشككا في نيتها العودة؛ فقد كان إهمالها في إجابة اتصالي الهاتفي بها قد أعادني من جديد لذكريات تجاهُلِها وكبريائها الذي لا حدود له. فلم أقوَ على تجاهل تلك الذكريات، وقد حرت في فهم ماذا أرادت باتصالها قبل أيام، فأنا لم أنسَ إهمالها لي وكنت لا أزال متيقنا أنها ستظل دائما تُذكرني بهذا التعالي وذاك الكبرياء اللذين يلازمانها فلا ينفصلان عنها ولا تنفصل عنهما حتى في ذلك اليوم الذي قَدِمْتُ إليها فيه. لم تتنازل أبدا عن كبريائها المزعوم.

حاولت أن أتجاوز ما فعلته لمّا لم تجب اتصالي فلم أستطع تجاوزه

فكتبت لها: هاتفتك لما شجعتني أن أهاتفك ولست أرى في اتصالك بي ما ينال من كبريائك. انتظرتك في الطريق وهاتفتك فلم تجيبي وفي ذلك دليل على تقديري لك؛ فأنا لا يمكنني تجاهل كل تلك اللحظات السعيدة التي ظللتِني بها ومنحتِني إياها -وإن كانت قليلة- فذلك لا ينزع ما تركتِه في نفسي ولا يُنسيني ومضات السعادة التي منحتِني.

أريدك أن تعلمي أنّ عودتك لي لا تنال من كبريائك، فقد عدت إليك مرارا ولم أستشعر في اقترابي منك ما يحط من كبريائي أو يهدر كرامتي. فلما صمتَتْ ولم تجب تيقنت أنني قد نلت منها دون أن أعمد إلى ذلك، لكنني صرت أكثر قوة؛ فلم يعد يرضيني أن تراني دائما ذلك المحب الذي ينتظر إقبالها ويتألم لرحيلها دون أن يملك من أمره شيئا.

كان كل شيء رهن لإرادتها وكنت لا أملك إلا الانتظار، انتظار أنْ تُغْدِق وانتظار أنْ ترضَى ، وتمنِّي أنْ تبتسم في وجهي وحُلْمَ ألا تغضب لنوبات ثورتي وأملَ ألاَّ ترحل إذا ما أخفقت في احتمال تعاليها وكبريائها.

لكنني كرهت أن أبدوَ كمن عاد صاغرا وإن لم أعد أهتم كثيرا إن فهمت ذلك؛ فأنا قد كرهت أن أعود إلى دائرة انتظاررضاها وتمنعها من جديد. فلما كنت قد استجبت لرغبتها في العودة وقطعت خطوات في الطريق إليها مقابل خطوة واحدة خطتها لم أستطع تحمل تعاليها من جديد ورأيت أنني أستحق أن تعبر لي عن خطئها و تعتذر عنه وتخبرني بأنها قد أدركت كم أحبها و بأنها تقدِّر كل ما فعلت من أجلها وقت أنْ كانت لا تعبأ بمشاعري.

لكنها و بدلا من أن تفعل أيًّا من ما ظننتها ستفعله عادت إلى دائرة صمتها من جديد وكأنها لا تعرفني.

و لما ظلت تَشْكِي حالها ووحدتها انزويت من جديد غير نادم على ما أحطتُها به من اهتمام ظننته يليق بها ولم أعد أنتظر أن تقدره أو تقابله بما يستحق. ومن ثمَّ فقد عدنا لساعات قليلة لم تتجاوز يوما واحدا قبل أن نفترق من جديد.

(12)

دعتني (سارة) إلى أن أصلي من أجلها، فاندهشت لتلك الدعوة وتَوْقِيتِها، فلما بدا الإعياء واضحا في صوتها رجحت ظنوني وصدقتها فيما ذهبت إليه. وقد أخبرتني بمعاودة آلام ظهرها من جديد وبأنها ستُجري جراحة أخرى في نفس موضع جراحتها السابقة.

فلما سألتها إذا ما كان أحدهم إلى جوارها؟

أخبرتني بألم ومرارة: نعم.

عند ذلك تذكرت أنني لم أسألها من قبل عن عائلتها مثلما لم أسألها عن زوجها السابق أو ربما الحالي، ولم أعرف بالطبع إذا ما كان لها أبناء. ولم يبدُ ما خطر لي عن زوج مفترض وأبناء أمرا غريبا لمن في سن (سارة) أو من في هيئتها؛ فقد بدت لي امرأةً ناضجة مكتملةً لا تُنقصها رومانسيتُها وقارا أو حكمة.

لكنني لم أكن أبدا مَعْنِيًّا بالسؤال عن ما رأيته جزءًا خاصا بها لا يجوز السؤال عنه.

قلت: سآتي لأزورك. اطمئني، ستكونين بخير. ليس لك أن تمرضي و قد اقترب موعد رحلتنا القادمة.

ضحكت بألم، لكنها لم تنسَ أن تذكِّرني بما قطعتْه من وعد بينما كنا معا في رحلة لم أرغب أبدا في أن أكون بين مسافريها.

قالت:

أتذكر وعدي؟ قلت لك بأنك من سيدعوني إلى الرحلة القادمة ولم تكن تصدقني.

- الآن أصدقكِ.

- ولكن ماذا حدث، هل نسيت (داليا)؟

قلت: سأخبرك عندما آتي لزيارتك. ولكن في أيّ مستشفى أنتِ؟

أخبرتني باسم المستشفى الذي ستُجري فيه الجراحة في اليوم التالي، ولم يخطر لي مطلقا أن تكون هي ذات المستشفى التي تعمل فيها (داليا) كطبيبة. ووجدتني في اختبار جديد يتصارع فيه كبريائي الذي صحا من جديد وواجبي الذي دائما ما يدفعني إلى أن أبدوَ كمتسول لرغبة أو طامع في مقابل لم يخطرا لي قط.

و خطر لي ما قالته (داليا) من قبل: لا تمنح الناس مشاعر بلا مقابل: فأنهم يعتادون ذلك بل وسيطالبونك بمنحهم ما اعتدت أن تمنحهم من رعاية واهتمام وسيعاتبونك لمنعها إذا فعلت. فالناس لا يقدرون العطاء بلا ثمن ويظنون أن ما تمنحهم من حب ورعاية حق لا يجوز لك منعه.

من جانبي لم أرد مقابلا أبدا ولم تغيرني حِكَمُها المحسوبة. لكن ما أخشاه ويشغلني الآن هو أن أراها في المستشفى أو أن نتقابل صدفه بينما أزور (سارة) المريضة. فأنا لم أعد آمن ظنونها ولا أريد أن يخطر لها أنني قد عدت مهزوما أطلب إليها العفو.

وأدركت للمرة الأولى بأنها قد جعلتني أفكر مثلما تفكر، فصار كبريائي حاضرا يسبقني قبل كل قرار. وخشيت أنني قد أنقلب شريرا

لما تذكرت ما قاله أحدهم بأن المرء لا يتحول إلى شرير إلا عندما يعاشر شريرا.

وكعادتي دائما قبل كل قرار أرجأت زيارة (سارة) إلى اللحظة الأخيرة وعندما ارتكنت لفكرة الإرجاء تلك ابتسمت راضيا؛ فلقد أدركت أنني لم أتغير تماما وأنني لم أتحول بعد إلى مغرور أَشِر.

***

أخبرت (سارة) أنني سأحضر لزيارتها قبل أن يحين موعد إجراء جراحتها وكان أن تَبَقَّى ساعة واحدة على ذلك الموعد، فأسرعت لشراء باقة ملونة من الورود وقصدت طريقي إلى المستشفى.

وفي الطريق كنت لا زلت آمل ألا تكون (داليا) هناك، لكنني ما إن وصلت إلى المستشفى حتى رأيت سيارتها وقد أُودعت في مكانها المعتاد، فاستغرقت في لحظة تَرَوٍّ قبل أن أتخذ سبيلا للصعود إلى غرفة (سارة) وعزمت على تجنب كل الطرق التي قد تقودني صدفة إلى ملاقاة (داليا) أو تُلقي بي في وجهها دون أن أحتسب للقائها.

ولما كانت رحلة الصعود إلى غرفة (سارة) بالمستشفى الخاص الصغيرة التي ترقد في إحدى غرفها بمثابة زيارة محفوفة بخطر أن تراني (داليا) فتظن بي الظنون، فقد توقفت للحظه قبل أن أقدم على عملٍ قد يقطع ذلك الخيط الأخير الذي يربطنا. ووجدتني عاجزًا عن الصعود أو العودة، ثم وجدتني أستغرق في التردد قبل أن أقرر تغليب ما رأيته واجبا ينبغي تأديته: فأمام اندفاع طبيبتي المجنونة ينبغي التفكير مليا قبل الإقدام على خطوة كتلك.

فهي وإن كانت قد تصفح عن أخطاءٍ لا تنساها أبدا فلست أظنها تصفح عما قد تظنه علاقة لا وجود لها تجمعني بامرأة أخرى..

ثم خطر لي أن (سارة) و (ليلى) لا يتوقفان أبدا عن الثرثرة ولابد وأن سارة قد صادقت كل الأطباء والنزلاء خلال ساعاتاها القليلة التي قضتها في المستشفى. ومن يدري فربما صارت صديقة لـ (داليا) أيضا.

ودون أن أنسى وجدتني أتخيل "طبيبتي" وقد رأتني فاعتراها الشك وقتلتها الغيرة وأخذتْها نوبة جديدة من التعالي والكبرياء. عند ذلك أيقنت أنني لن أكون بمأمن من رد فعلها الذي قد يتراوح ما بين التجاهل إرضاءً لغرورها وبين تصرف مجنون قد يدفعها إلى ارتكاب حماقات غير محسوبة.

وقد ظننتها ستحطم شيئا لا محالة، ولكنني لم أشأ أن أستكمل هواجسي حتى النهاية وقد شرعت في تحسس رأسي خشية أن تكون تلك هي المرة الأخيرة التي أتحسسه فيها.

وصلت إلى غرفة (سارة) التي تقع في نهاية ممر طويل يمتد بطول الطابق الأول بالمستشفى. كان موظف الاستقبال قد وصف لي موقع الغرفة ورقمها ثم اصطحبني بعينيه ووضع في وجهه ابتسامة مودة بينما كنت أسير علي درب خطىً رسمها لي بدقة تقودني في النهايه إلى الغرفة رقم 9.

ذلك أنني قد أبديت عن عمد قدرا وافرا من البلاهة كي لا يتذكر وجهي الذي لابد وأنه قد رآه في زياراتي السابقة للمستشفى.

كنت أحمل باقة من الورود الحمراء والبيضاء أَعَدتُ ترتيبها برفق بينما أقف بباب الغرفة، وقبل أن أهم بطرقه أو تكاد قبضتي تلامسه حتى جاء صوت(داليا) من داخل الغرفة يطمئن (سارة) على سلامتها وانتظام وظائف جسدها.

كان حديثهما الذي بدا وديا وكأنهما صديقتان تقطعه ضحكات رقيقة أعرفها وضحكات رنانة أخرى أعرفها أيضا لكن تلك الأخيرة لم

تكن مجلجلة كعادة من تطلقها، فكانت تتقطعها الآلام كلما علت أو ازدادت. لم أتبين ماذا يثير ضحكاتِهما ولم أكن مهتما بذلك قدر اهتمامي بالخلاص من هذا التردد الذي يكبلني أمام الغرفة ويجعلني مسلوب الإرادة أنتظر اللا شيء.

ولم أعرف ماذا أنتظر ولكنه ولعُ قرارات اللحظة الأخيرة التي يُغذيها التردد والعجز والتي قد تُفضي بي إلى كارثة يوما ما. فأنا كمن لا يزال معلقا في حبال دائبة. أحبها! ورغم كل ما أصابني من ألم لا أجدني قادرا على إيلامها، و تخيلتها لا زالت تحبني أيضا. فحملت ورودي مغادرا وكنت أسرع الخَطْوَ عابرا الممر الطويل بلا روية وكأنني قد استيقظت فجأة على فجيعة أُلقيت في سريرتي بينما كنت نائما.

فلما جلست في سيارتي وضعت يديَّ على خديَّ وقد تفرقت أصابعي فوق أذنيَّ فتركت عامدا مكانا لصوت (داليا) يعبر خلالهما إلى مسامعي. كانت تقول:

لقد تأخر وقت التردد والارتباك .. لم يكن لك أن تنصرف دون أن تزور صديقتك المريضة.

سألتها بينما كنت لا أزال أجلس بمفردي في السيارة:

كيف تبين لكِ نني ترددت يوما فيما أحمله لكِ من حب بينما أنا لم أكتب ما تظنينه صوابا في أيٍّ من رسائلي إليك و لم أقله.

فأرادت أن تبرر ما قالته، لكنني ذكرتها باندفاعها الذي يفسد كل شيء، حتى الخيال يفسده انتقادها اللاذع، وذكرتها بما قالته لي من قبل: أريدك أن تكون حرا دائما.

فلما انتهى إلى مسامعي ما قالته بصوتي الجاف الخشن أدركت غيابها، وأدركت كم صرت أبلةَ يحادث نفسه دون أن يمتلك صوتا ناعما رقيقا كصوت (داليا).

فلما عدت من حديث جمعني بها في عالمي الافتراضي المهووس أطلقتُ عينيَّ تدوران في الزوايا الأربع، خشية أن يكون أحدهم قد رآني أحادث غائبا وأنهره فيظنني مخبولا. وللتو أدرت محرك سيارتي ورحلت إلى مكان آخر أكثر إظلاما أستكمل فيه حديثي مع نفسي دون أن يراني أحد.

(13)

كنت أقف عند المدخل الرئيس لفرع الجامعة الأمريكية في شارع الفلكي بين جمعٍ من رواد مسرحها في انتظار حلول السابعة والنصف من مساء أحد الأيام الجمعة.

وذلك قبل نصف ساعة كاملة على موعد رفع الستار عن العرض المسرحي الذي يحل في الثامنة تماما، وكنت أقتل الوقت بينما أتبادل الرسائل الإلكترونية مع مخرج العرض الذي دعاني للحضور في ذلك اليوم.

وكان الجمعة يوم أجازة (داليا) الأسبوعي كالمعتاد لكنني لاحظت في الأيام الأخيرة تغيُّبَها عن منزلها لفترات طويلة في هذا اليوم علي غير ما جرت به العادة، و لم أكن أعرف إلى أين تذهب أو أين تقضي كل تلك الساعات التي تغيب فيها.

فلما كنت قد ألفت تغيرا في ثوابتَ كانت تجمعنا غاب عني اندهاش وتعجب كنتُ أبديهما متحفظا اذا ما لمست أمرا غير مألوف تفعله. كان ذلك في أوقات اقترابنا كعاشقين لا يخجل أحدهما من خلع ملابسه في حضرة الآخر.

وإذ تغير كل شيء وذهبت الطمأنينة وحَلَّ الارتباك وسادت الريبة والشكوك بيننا بعد أن أخذت مساحات التفاهم تتضاءل حتى اختفت تقريبا. إمسيت لا إتوقف كثيرا إمام إهمالها المتعمَّد لوجودي

وصرت آلف كوني لم أعد أحل على رأس اهتماماتها. وبعد أن كنت أعاتبها بل وأنهرها كثيرا على ما قد تبذله من تمنع وما تبديه من إهمال و تدلل سواءً تعمدته أم لم تتعمده صرت أقلَّ غيرة ولهفة بعد ما تيقنت من جنوحها قاصدة تلويعي.

أَمَا وقد تجاوزت سفاهة حيل التلويع المبتذلة التي تُحول الحب إلى صراع يُخضع أحدُ طرفيه الآخرَ دون سبب مفهوم ودون أن أدري إجابة لسؤال ظلَّ يطاردني لوقت طويل وهو: لماذا يجب أن يُخضع أحدهم لإرادته أحدا آخر يحبه؟

كنت أظن طبيبتي أكثر نضجا وتعقلا .. لكنني كنت مخطئا تماما فيما ظننت؛ فهي لا تعدو أن تكون امرأة كسائر النساء اللاتي يستهويهن إخضاع الرجل وامتلاكه . وأمام إدراكي لتلك الحقيقة التي لا تحتمل التباسا صرت أكثر تصالحا مع كل من حولي وحتى مع من هم في الوادي البعيد؛ فأنا لن أتحول عما ألفت من عادات ولن أحيد عما ظننته قناعات تسكن يقيني فلا تتغير.

وتنبهت أخيرا إلى إشارات كان يرسلها موظف الأمن بيده لرواد المسرح إيذانا ببدء توافد جموعهم لعبور البوابة الإلكترونية المفضية إلى حرم الجامعة، و لما كان قد تبقى من الجمع أنا وآخران عبرت البوابة الإلكترونية ثم سرت في طريقي للصعود إلى الطابق الثاني من المبنى متوجها إلى مدخل المسرح. فلما دَلَفْت إلى المدخل ألقيت بأذنيَّ لتلبي صوت شيطاني الذي حملني على أن أقرر فجأة مراجعة رسائل (الشات) التي كنت قد انتهيت من تبادلها مع مخرج العرض قبل لحظات قليلة، وقد تملكني هاجس رحت أطارده و كان ينبئني بارتكابي خطأً لا يُغتفر.

فلما صدقت هواجسي أصابتني صدمة أخرستني وألقت بوهج حرارة صيفي في وجهي وكان أن غزتْ أنحاءَه بحمرة ولهيب، وأحسست بنيرانٍ تسري بين عروقي على الرغم من أنني كنت أضع معطفا شتويا فوق جسدي وأطوِّق عنقي بكوفية من الصوف اتقاء لفحات البرد القارص الذي يضرب الوجوه في ليالي القاهرة الشتوية.

وفَجَعْت لما رأيتني قد كتبت لها بدلا من أن أكتب إلى صديقي رسالة تقول: سندخل الآن.

وارتبكت ولم أدرِ ماذا أفعل! فأنا قد أمضيت ثلاثة أسابيع دون أن أتواصل معها على الإطلاق، فلا رسائل ولا لقاء ولا حتى تحية عابرة. والآن ماذا عساها تظن بي؟! وحزنت لمَّا تيقنت أن الإجابة لن تخرج عن كوني قد عدت إليها راكعا وأنني كنت أدّعي قدرة مفتعلة على التجاهل، وقد تراجعت عن تلك القدرة الآن فعدت صاغرا، وأنني اضعف من أن أهجرها لوقت طويل، بل وخلتها في كامل سعادتها ونشوتها لما عاد إليها كبرياؤها دون أن تبذل جَهْدًا لإعادته بعد أن تكفلت أنا بذلك راضيا منكسرا. ومن عساه يصدق أنني قد فعلت ما فعلت بالخطأ لا بإرادتي!

وهداني تفكيري إلى أن ألتقط صورة بهاتفي لجمعِ الرواد أمام باب المسرح قبل أن أرسلها إليها برُفْقَةِ اعتذار عما أرسلت بغير قصد. لكنَّ رسالتي تلك لم تفلح في أن تعيد الهدوء إلى نفسي؛ فقد وقع الخطأ ولن يصوبه شيء.

كانت دهشتي لِمَا فعلت وعجزي عن إدراك كيف فعلته يسلباني القدرة على الإحساس بالمكان الذي أتواجد به، حتى اكتشفت أنني قد دخلت المسرح وجلست في أحد مقاعد صالته وبدأ العرض بل وانتصف زمنه دون أن أَفْطُن أو أنتبه لأيٍّ من ما دار حولي.

كنت غائبا أدور بعقلي باحثا عن مخرج يرضيني من ما وضعت نفسي فيه دون اختيار، وأكتفيت بلعن الشيطان مرتين، فقد آثرت أن أصب كل ما تبقى من لعنات على أُصْبُعي الذي أرسل لها تلك الرسالة باختياره هو، أو لعله فعلها متآمرا مع عقلي رغما عني.

والآن، جلس كلاهما يضحكان مِلْءَ فَاهَهُمَا وقد لوى كلٌ منهما أُذنيه بيديه إلى داخل وجهه وأخرجا لي لسانهما ساخرين. وقد بدا لي مزعجا ومستفزا أن أرى إبهامي وقد صار له فاهٌ ويدان وأذنان وأنه صار ذا قدرة على السخرية مني.

واهتديت -بعد انقضاء العرض المسرحي بينما أنا في طريق عودتي لمنزلي- إلى أن أكتب لها شارحا أسباب ما ارتكبت من خطأ غير مقصود دون أن تخرج كلمات رسالتي عن مواضع جادة ودون أن تحوي أيًّا من الكلمات أو الإيحاءات الرومانسية. وقد أرهقني البحث عن مخرج يعيد إليَّ كبريائي ويمحو ما ظننته قد علق في خيالها فرأته موضعا مناسبا تحمله إلى أحد حوائطها كي ترفع عليه صورة العاشق المارق الذي عاد منكسرا.

واهتديت إلى تلك الكلمات فكتبتها لها :

اختار القدرُ أن أكتب لك. أعلم تفضيلك لأن تكوني بمعزل عن الناس عندما ينتابك ضيق أو ضجر، وقد ابتعدت أياما كي لا أزعجك لمَّا لمست رغبتك في الانعزال. وإن كانت قد تملكتني رغبة جامحة في أن أكون إلى جوارك كلما أصابك الحزن إلا أنني قد أبقيت تلك الرغبة في نفسي فلم تغادرها.

عند ذلك عادت ردودك الباهتة تصدمني من جديد فاكتفيتِ بامتنان غرباء وتقدير بلا روح وتعللتي بالإرهاق والتعب، فأغلقت هاتفي ولم أعد أنتظر رجاءً.

عاتبتني (سارة) عتابا رقيقا على عدم وفائي بوعد زيارتها، و قد أُصبت بخجل أعجزني عن سوق مبرر مقنع حال بيني وبين أداء تلك الزيارة. فلما استشعرت ما بدوت عليه من ارتباك أرادت أن تعفيني من خجلي وافتعلتْ انشغالا مفاجئا بزوار أتوا إلى منزلها للتوِّ. فاعتذرتْ ووعدتني بمعاودة الاتصال في وقت لاحق، فأظهرت استسلاما لرغبتها وتلقفت طوقها الذي ألقته لينقذني من غرق محقق في بحر من التبريرات الساذجة.

وما إن وضعت هاتفي جانبا حتى تحول إحساسي بالخجل إلى تأنيب وندم وراح قلبي ينهرني جراء ترددي اللعين ذلك الذي يهوى أن يضعني في مواقف صعبة كثيرا ما تفقدني تعاطف الآخرين. فأنا قد تراجعت عن زيارة (سارة) خشية أن تقطع تلك الزيارة آخر الخيوط التي تربطني بـ (داليا) ولكن، أيُّ خيط ذاك الذي حرصت على إبقاء رباطه بيننا وتوهمت قدرته على جذبها من جديد!

وبقيت نادما على قراري بالتراجع عن زيارة (سارة) وأدركت سوء ما فعلت لمَّا بدا أنَّ فِعلتي الحمقاء قد وضعت حاجزا بيني وبينها في وقت لم تتخلَّ فيه عن مساندتي عندما كنت في أمَسِّ الحاجة للمساندة. رهنت صداقتها برضا (داليا) فلا أنا فعلت ما تقتضيه تلك الصداقو ولا أنا استعدت حبيبتي الحمقاء التي لا ترضي. وهكذا خسرت كليهما أو اقتربت من تلك الخسارة بسوء اختياري وترددي المزمن.

أعلم أنه كان بإمكان (سارة) أن تُكمل مكالمتها الهاتفية معي في حضرة زوارها فهي كما عرفت لا تخشى لوم الآخرين، وهي أيضا مملوءة بالثقة في حسن اختياراتها وليست تُلقي بالا لما يظنه الناس أو يقولونه.

وعادت نوبات التأنيب تُخبرني أنها لم تكن تنتظر أن ألاقي اهتمامها بإهمال، أو أقابل مودتها بجحود وأنها لابد كرهت أن تُواصل معي ذلك

الحديث. وخشيت أنَّ عقلي كاد يدهسني في نوبة من نوبات عَدْوِهِ ودورانه المنفلت داخل رأسي وقد فقدت السيطرة على جموحه ورعونته فلم أعد أعرف ما الصواب وما الخطأ وكأن (داليا) قد عبثت بأسلاك ذلك العقل وأفسدت وصلاته الدقيقة. فلم يعد ينبعث من تلامس طرفين بداخله سوى ضوء خافت لا يُسعفني إذا ما أردت أن أرى الأشياء بوضوح حتى وإن أَبْرَقت عيناي حتى تري أو ترسل وميضا يُريني نيابة عنها. فلما أدركت أن لا جدوى من كل ذلك أمسكت بهاتفي وعاودت الاتصال بـ (سارة) وقد رأيت فيما أرى من صور مشوشة أنه من الأفضل أنْ أعتذر مجددا. ورأيت أن أسألها أن أقوم بزيارتها في مكان عملها إن كان ذلك متاحا أو في أيِّ مكان آخر تقترحه. مع حرصي طبعا على الابتعاد عن كل ما قد يُوحي بتجاوزي حدودًا وضعناها بيننا وتوقفنا عند خطوطها. وقد كنت أكثر حذرا في طلبي لمَّا أجابت اتصالي، ولكنها عادت تعتذر عن مواصلة الحديث الهاتفي في تلك اللحظة ثم همست لي (حافهمك بعدين .. طارق هنا).

أغلقت الهاتف فورا وكأنني أَفِرُّ بعيدا عن طريق به عربة طائشة كانت تسرع لتدهسني وتدهس كل ما تجده من الأشياء المبعثرة في غرفتي. وما إن انحشرت العربة في أحد الأركان واطمئننت أنّها أُصيبت بالشلل حتى ألقيت بجسدي فوق سريري منتشيا بعجزها عن الحركة. ثم راح يتردد على مسامعي اسمُ (طارق)، هذا هو اسمه كما أخبرتني (سارة) خلال رحلتنا إلى رأس شيطان.

ولكن، متي عاد كلاهما للآخر؟! لابد وأنه قد زارها بالمستشفى وربما كان معها منذ اليوم الأول هناك. ولكن من أخبره؟! لابد وأنَّ (سارة) قد أخبرته كي تستعطفه فيرق قلبه ومن ثم تستعيد ذلك الناسك إلى معبدها : فالخلافات تذوب على أَسِرَّةِ المرض.

ومهما غضب العاشقان فإن القسوة والجفاء يذوبان في حضرة الألم، ولعلها رأت في مرضها فرصة لاستعادة حبيبها ما كانت لتهدرها امرأة أخرى أقل ذكاءً.

ارتحت لظنوني وأحسست بسعادة من أجلها؛ فهي امرأة طيبة لم تكن لتستحق أن تُعامل بقسوة. ربما كان لرجلها مبررٌ أتفهمه خاصة وأنَّ ذاك المبرر يقع في دائرة الغيرة التي يُستعصى تجاوزُ غُصَصَها دون خسائر.

وفي المساء هاتفتني (سارة) من جديد. كان صوتها يتراقص في ابتهاج، و قد فهمتُ سر تلك السعادة التي تغمرها -وإن لم تقل ما يؤكد ما فهمت- وقد أخبرتني أنَّ (طارق) قد علم بمرضها منذ اللحظة الأولي وأنها لم تكن بحاجة إلى أن تخبره أو تطلب إلى أحدهم أن يضطلع بتلك المهمة.

و لما سألتها بينما يغلبني ميل إلى عدم تصديق روايتها، أسرعتْ إلى تبديد ما أعتقدتُ وفاجأتْني بأنَّ (طارق) هو أستاذ الجراحة بالمستشفى وأنه من أجرى لها العملية الجراحية كالعادة. عند ذلك استعدت ذكرى وقوفي أمام باب حجرتها وتذكرت الثواني القليلة التي بقيتها هناك أستمع دون إرادة مني إلى حديث وديٍّ جمعها بـ (داليا) وكنت قد فسرت ذلك الحديث الودي بينهما بقدرة تجمع كلاهما على الانسجام والتواصل مع الآخرين سريعا ودونما انتقاء وفي زمن قصير.

لكنَّ الأمر قد تخطى تفسيري البائس إلى روابط ربما ألفت بينها منذ وقت لا أعرفه على وجه الدقة وأنه زمن لابد يتجاوز بكثير ساعات اليومين الأخيرين.

سألت (سارة) -بعد أن هنَّأتها بالطبع، وبعد أن عبرت لها عن سعادتي من أجلها- إذا ما كان طارق هو ذلك الطبيب النحيف الذي يميل إلى القصر.

فضحكت ضحكة رنانة ثم أضافت:

وهو أيضا ذلك الأربعيني الأصلع أسمرُ اللون الذي كثيرا ما تمنيت أن يصدر صوتا بفمه حتى أراه إذا ما جمعنا مكان مظلم، وهو أيضا من يُصر على أن يقصر شاربه كـ(هتلر) لكن عينيه الساحرتين جذبتاني منذ اللحظة الأولي التي رأيته فيها فلم أقوَ على مقاومة حَوَرِها. أحبه لجمال عينيه وطيبة قلبه التي تفضحه رغم محاولاته المضنية لكي يبدوَ خشن الطباع جافا غليظا.

أما أنا فلم أستغرب ما قالته؛ فلقد جاوزت ذلك النوع من الاستغراب منذ أن رأيت المرأة المستديرة ككرة من اللحم تُعلق ذراعها في مرفق رجل وسيم.

وأردت أن أسألها عن توجس يشغلني حول معرفتها لـ (داليا) فأجابت بـ نعم. واستطردت أنها تعرفها بحكم ترددها على المستشفى في الأشهر الأخيرة، ومنذ أن أُصيبت بآلام ظهرها وأنها تراها طبيبة ماهرة ولطيفة.

عند ذلك أدركت أن سؤالي عن (داليا) قد أوشى بوضوح بأنها طبيبتي التي لم تكن(سارة) تعرفها، و من المؤكد أنها باتت تعرف الآن بأنها هي ذاتها الطبيبة التي أحبها وأصابتني بالجنون.

ولما كانت (سارة) من أولئك النساء اللاتي يحرصن حرصا شديدا على اختيار مفرداتهن حتى لا تجنح إحداها فتصيب قلبا أو كبرياء، فقد تجاهلت الأمر برمته، وكأنها أرادت أن تُعفيَني من أحمالي. ثم حولت الحديث إلى وجهة مغايرة فراحت تحكي لي كيف كان حال طبيبها بينما كانت تستفيق بعد الجراحة.

كانت تصف قلقه بينما يجلس في ترقب إلى أن فتحت عينيها فستفاقت على طلته، وكان وصفها بارعا حتى أنني قد رأيت ذلك

المشهد الذي تصف بعينيَّ الضيِّقتين. وفي لحظة أبعدت هاتفي عن أذني قليلا ووضعت يدي فوق سماعته وقد خشيت أن تصل ضحكةٌ - حاولت خنقها- إلى مسامعها. كان تأمل ذلك الـ (طارق) في وصف رومانسي تأملا مثيرا للسخرية؛ فهو تجسيد حي لنجم يلمع في مرآة الحب العمياء.

و كعادتها المرحة أنبأتني بأن صوتي قد ابتعد للحظة وأنني لابد وقد ضحكت لوصفها. لكنني كرهت أن تظن ذلك فأنكرته وخجلت من ما فعلت فجاوزته ثم أطريت على كفاءة الرجل الطبية وسمعته القوية في مجاله وأثنيت على اختيارها لرجل ناجح وإن خالف إطرائي ما ظننته الحقيقةَ وإن وافق ظني بأن ليس في الحب اختيار.

و سألتني (سارة): كيف عرفت أن (طارق) قصير ونحيف بينما لم تأتِ لزيارتي في المستشفى؟ وقد وضعني سؤالها بين اختيارين كلاهما مر: أحدهما أن أنسج أكاذيب أبغضها ولا أجيدها. أما الاختيار الآخر فهو أن أستغرق في حكي تفاصيل أكره أن أخبر بها أحدًا أيًّا كان.

ووجدت ضالتي في اختيار ثالث يجنبني الإخفاق في سوق أكاذيب لا أجيد نسجها ويُعفيني من الاضطرار إلى سرد تفاصيل أكره الخوض فيها. واستحسنت فطنتي إذ أخبرتها عن حقيقة ذهابي قبل أشهر إلى تلك المستشفى لمعاودة طبيب يعالجني من آلام الظهر. فنجوت من فعل ما أكره وما أبغض.

وقد حدث أن حضر (طارق) الذي كثيرا ما تصادف أن يأتي بينما أسترق أنا و(داليا) دقائق معدودة تجمعنا في غرفة الأطباء وكأننا مراهقين. وكنت أعاني تلك الآلام التي كانت تعاودني على فترات طويلة. فتطوعت "هي" بإخباره عن ما أعاني من ألم عندما باغتنا بحضوره كعادته. وقد أرادت أن تُعفيَني من حرجي؛ فهي تعلم جيدا كم يؤرقني

أن يحضر أحدهم بينما نقف منفرديْن في تلك الغرفة نتبادل كلمات قليلة في دقائق معدودة. فلما أراد أن يفحص موضع ذلك الألم -في وقت أختاره أنا ضمن أوقات عمله- باغتَتْه بإعلان عن متابعتي لجلسات علاج طبيعي أوصَى بها طبيب لم تسمه بناءً على تشخيصه لحالتي.

كانت (داليا) ذا قدرة فائقة على أن تبث سمومها في شرايين كل من أرادني بسوء خاصة في عصر البدايات، وكان دفاعها الصلب وأسلحة حمايتها الحاضرة في مواجهة من تظنه قد أراد النيل مني قد بَدَوَا ملفتين إلى حد كبير مقارنة بضآلة جسدها وضعف بنيته. فأذابتني فيها عشقا. فلما هدأت مشاعرها وكثر غيابها بقي لها في قلبي رصيد تناقص وإن لم يختفِ تماما.

(14)

مرت أسابيع قليلة انقطعت خلالها أخبار(سارة) وتوقفتْ عن مهاتفتي ولم تعد ترسل لي رسائل ترحيب وطوى البعد رغبة جمعتنا في أن نلتقي يوما لنشاهد سويا عرضا مسرحيا لم نحدده أو نرتب لحضوره. تواعدنا فقط على لقاء يجمعنا في أحد دور العرض، لكننا أبدا لم نلتقِ.

وتوقفت كذلك عن مهاتفتها وترددت كثيرا قبل أن لأرسل لها رسالة ترحيب أو مجاملة بعد أن خشيت أن تفسد رسائلي او اتصالاتي علاقتها بطبيبها الغيور. فلما اختفت صور الرحلة الأخيرة التي كانت تزين صفحتها على الفيسبوك، وبدا التحفظ هو السمة الغالبة على تعليقاتها وعلى ما تنشره في تلك الصفحة أدركت بحاستي التي لا تخطئ أن (سارة) باتت أكثر حرصا على ألا تفعل ما يثير حنق (طارق) أو يغضبه أو يستثير غيرته المفرطة.

ولم تكد تمر أيام قليله حتى وجدتها وقد نشرت على صفحتها صورا من ليلة زفافها على (الطبيب) في أحد الفنادق الكبرى. فلما فتحت تلك الصور وجدتها في هيئة مختلفة عن ما اعتادت أن تبدوَ عليه. صار التحفظ هو السمة الغالبة على طلتها، وأزيلت الصور الجريئة التي كانت تنشرها، وغاب عن وجهها تلك الابتسامات التي كانت تشع من وجهها وتحولت ضحكاتها إلى مسوخ ضحكات جادة ومفتعلة.

ولم أستسغ قناعها الزائف الذي أرادت أن يراها فيه المحتفلون بزفافها، وإن أفلحت في تقمص دورا جادا بدت فيه غريبة تماما عن طبيعتها وتلقائيتها فلم أصدقها وتعجبت لطول فستانها؛ فلم أكن قد اعتدت أن أراها في رداءات طويلة ذات أكمام تُخفي ذراعيها اللذين يكادان يُضيئان.

وخشيت أن تتحول بعد الزواج إلى امرأة بدينة مترهلة تنشغل بإخفاء مفاتنها أكثر من انشغالها بطلتها الجميلة وانفتاحها، وظننتها ستقاطع أصدقاءها وتهجر رحلاتها، وخشيت أن تترك عملها إرضاءً لزوجها المنغلق المتحفظ.

وإذ واصلت فتح صور زفافها المنشورة على حائط صفحتها وجدت في بعض منها صورا تجمعها وزوجَها بنساء بَدَوْنَ كأقرباء، وربما كنَّ صديقات لا أعرفهم؛ فأنا لم ألتقِ أيا منهن في رحلتنا إلى رأس شيطان.

وكنت لا أزال أتوقع أن أرى صورا لرفقاء تلك الرحلة لكنني لم أرَ أحدهم، فتيقنت أن (سارة) قد قررت الانفصال عن أصدقائها وربما عن روابطها القديمة أيضا إرضاءً لغرور زوجها المنتظَر.

واصلت تصفح باقي صور الزفاف موقنا بأنني إنما أقضي لحظاتي الأخيرة على حائط صفحتها، وكنت لا أستبعد أن تطردني منها (سارة) إرضاءً لـ (طارق) وخشيت أنها قد تكون مُقدمة على بذل تنازلات لا نهاية لها، وعزمت على أن أغادر باختياري بمجرد أن أنتهي من مشاهدة باقي الصور.

وقد دفعني الفضول إلى أن أعرف إذا ما كانت (داليا) قد دُعيت إلى حفل الزفاف وإذا ما كانت ستظهر في إحدى الصور المنشورة على حائط الصفحة.

وملأني الشك في أنني سوف أجد صورة لها في هذا الجمع لتيقني من أنها ليست صديقة حميمة لـ (سارة) وليقيني بأنها لا ترتاح كثيرا لزميلها الطبيب ولا تميل لحديثه، وإن نجحت كعادتها في إخفاء مشاعر البغض تجاهه؛ فهي تتقن أداء أدوار المودة الزائفة وكأنها نجمة سينمائية لامعة، وقد أخبرتني ذات مرة بأنها تكرهه لحدته وصَلْفِهِ.

وعلى غير ما توقعت وجدت صورة لها بينما تقف إلى يمين (سارة) ويقف طارق إلى يسار زوجته وقد قسمته حدود الصورة فظهر نصفه أو يزيد قليلا، فلما أسرعت بتكبير الصورة اكتمل نصفه المفقود وظهر إلى يساره رجل طويل نحيف خفيف الشعر ذو شارب بنيٍّ يميل إلى الاصفرار وقد نُسخت عيناه فاصطبغت بلون عينيَّ (داليا) حتى ظننته شقيقها من زوجة أبيها الراحل. ثم هممت بقراءة التعليقات التي كُتبت أسفل تلك الصورة حتى أتبين مدى صدق ظنوني. ومللت طول التعليقات التي لم تُفصح عن هوية الرجل ذى الشارب المُصْفَرِّ حتى جاءت أحدها بالخبر الصادم عندما عبَّرت إحدى صديقات (داليا) - التي لم أهتم لمعرفة اسمها كونه قد كتب بحروف هندية، بعد أن أطرت على جمالها- عن سعادتها بتواجد توأمها إلى جوارها. فلما كنت أظنه قد انفصل عنها رأيته قد عاد والتصق من جديد.

كانت (داليا) قد أخبرتني في بداية علاقتنا أنها قد انفصلت عن زوجها لأنها لم تكن تحبه وأنها باتت أكثر سعادة بعد رحيله وأنها تكتفي بحب طفليها الذين ملآ ثلثي قلبها وأنني قد أصبحت أشغل الثلث المتبقي من ذلك القلب منذ أن أحبتني.

عادت إذًا لزوجها، تُرى هل انفصلت عنه قبلا؟! ربما أعادها إلى عصمته وقت أن افترقنا في المرة الأولي.

أذكر تلك الرسالة المقتضبة التي أرسلتها لي في مساء أحد الأيام وكان نَصُّها: أحبك و لكني لا أستطيع الاستمرار في علاقتنا.

و قد سبقت إرسال تلك الرسالة بانقطاع تامٍّ عن التواصل معي لِمَا يزيد عن الأسبوعين لاسباب لم تفصح عنها أبدا، اكتفت بعدها بالتعلل بمشكلات عائلية واجهتها ولم تخبرني أبدا بأي منها.

وقد صرت أميل إلى الظن بأن قصة الانفصال تلك ما هي إلا كذبة من الأكاذيب التي نسجتها بإحكام كي تأسرني وتُسَخِّر أخيلتي لعشق لقاءاتنا الحميمة التي طالما أغرقتنا في تأوهات ووجع وأشعلتنا بلهيب لم يُطفئه إلا ماء مرتعش يندفع فائرا كاندفاع الحِمَم من فُوَّهَتَيْ بركانين ثائرين.

وانتعشت ذاكرتي حتى حطت بي في زمن كنا فيه متيَّميْن، وقت استهواني جمال عينيْها الناعستين وروعة شفاهها المكتنزة المستسلمة، ودفء صدرها المستدير الجالس في وداعة وثقة كحمامتين بيضاوين ذواتى رأسين ورديَّيْن.

ثم استوقفتني طلتها في الصورة ورُحت أبحث عن مكامنها المستترة خلف ردائها الداكن، فاستثار خيالي وأعادني إلى أزمان غَنْجِها، وقت كانت تُغدق في وصف مفاتنها كي تملكني بينما تواري توحشها خلف تفاصيل وجهها الرقيق الحاني، ذلك الوجه الذي اندست في ثناياه طيبة اصطنعتها بإحكام كي تُخفي فخا منصوبا أطبقته حول عنقي فاستلبتْ أرادتي وغيبتني.

فلما لم يعد لي من طرائق الخلاص من سطوتها إلا أن أضلل طائريها إذا ما تاقا للعودة، شرعت أحرق الرايات الملونة التي يعودان على هداها وأزلت برج المأوى حيث يبيتان، فلم يعد لهما من سبيل للعودة في مواسم النضج، ولم يبقَ لهما ملاذ للسكنى في زمن الترهل.

وألفت أن أدع الأيام تمر دون أن أتوقف طويلا أمام ذكرياتي الموحشة إلى أن لان ما كان عصيا على النسيان، و تكرر غيابها واستمر تجاهلها حتى اعتدته. و تعمدت أن أذهب مرات ومرات إلى حيث تعمل فكنت أراها من خلف الباب الزجاجي بينما أقف مستترا في زاوية حتى لا تراني، إلى أن أعتدتُ رؤيتها وغاب بريقها. وتواري اشتياقي إليها حتى ظننتني قد نسيتها وانسحبت آثار إدماني لجسدها حتى زهدته، فعادت تبدو لي بعد مرور أشهر على انهيار صلاتنا مثلما كانت تبدو قبل أن أعشقها. عادت سيرتها الأولي قصيرة ونحيفة وأقل جمالا من ما ظننت، ثم انطفأت هالتها حتى صارت دائرة مظلمة ذهب عنها توهجها الملون بالذهبي.

وكان أن التقيتها ذات مساء فأومأت برأسي محييا فبادلتني التحية وقد علا وجهيْنا ابتسامة باردة ثم عمدت إلى النظر في عينيها فوجدتهما قد غاب ألقهما ورأيتهما لا تزالان حزينتين كعهدي بهما. وكان أن تصادف مرور ماسح الأحذية الخمسيني الطيب على مقربة منا فهممت بتحيته وقد انفرجت أساريره عندما نظر إلى قدميَّ فوجدني أرتدي حذاءً جلديا. انبرى مقبلا، وإذ لم أكن أملك إلا الاستسلام لرغبته التي طال انتظارها فقد أقبلت نحوه طائعا فتوقف، ثم بسط لي صندوقه في رضًا فوضعت إحدى قدميَّ فوق الصندوق فشرع في طلاء حذائي، وقد غدونا كمن أَوْفَيَا بوعد غائبٍ آنُ حلوله.

ثم أَهَلَّ شتاء إثر شتاء بوحشة ليالي عاصفة متتابعه ولفحات برودة صافعة قاسية، فلما أمطرت قليلا في إحدى أمسيات الشتاء الأخير امتلأت الحفر المتناثرة في الشارع بماء المطر فصارت بِرَكًا صغيرة تجمعت عند أطرافها بعضٌ من أوارق الأشجار التي اقتلعتها الرياح من فروعها وجرفتها قرب حدودها، عند ذلك أسرعت أختبئ من البرد في

سيارتي وأحكمت غلقها ثم أدرت محركها فانطلق صوت أم كلثوم عبر الأثير في موعده المعتاد.

وإذ خلتها سائرة حتى أوقفتْها إحدى البرك الصغيرة فأردت أن أخلع معطفي لأغطي به البركة كي تعبر فوقها دون أن يبتل حذاؤها، فلما شرعت في خلعه أعاقني المِقْوَد عن ما أردت وأعادني فورا من أخيلتي إلى مقعد سيارتي. ثم تكثف الضباب فوق زجاج السيارة فأخفاني داخلها حتى اطمأننت بأن أحدا لن يراني أذا ما خضت في جولة من جولات حديثي المجنون إلى نفسي.

وأردت أن أطل بعينيَّ لأرى ما حُجب خلف قطرات الماء الكثيفة المتساقطة فوق الزجاج. مسحت بمنديل بقعة صغيرة منه غطتها سحابة بيضاء صبغت شَفَافِيَتَه بلون شاحب، فرأيت الديك الذي أطلقه صاحبه البخيل في الشارع ليأكل من بقايا الطعام المختلطة بالقمامة بمحازاة الرصيف وفوقه. وكنت أمقته: ديك كاذب دائم الصياح، يُكبر في غير أوقات الصلاة وكأن أذانه مملوءٌ بإيقاعات رقيقة يعرفها وحده ونغمات أوتار ناعمة لا يسمعها سواه. ثم أشفقت عليه، فربما كان صادقا يستغيث وربما كان يستحث أقرانه على تكثيف الصلوات قبل موعد الذبح.

هاجت العاصفة فانزوى في جذع شجرة، ثم هطلت الإمطار بغزارة و كأن هويسا قد فُتح بابه عن آخره فغمر الأرض بماء أسود عذب.

ابتل ريشه وتلملمت أشرعة أجنحته وبرزت عظامه وجلده الأزرق، فأخذ يصيح بصوت مكتوم وكأن أحدهم يسحبه من عنقه ويقربه من أزيز القِدر. ألقى برأسه بين ساقيه يخفيها ثم خرس فصمتَ.

ثم عادت السحابة البيضاء فوق البقعة الصغيرة التي فتحتها في الزجاج تحجب الرؤية فعدت معها إلى الداخل. إخرجت دفاتر الحب

التي خبأتها إسفل مقعدي وإردت أن أبحث في أسباب البقاء وسبل المغادرة واستحضرت ذكرى يوم كنت مسافرة فيه ويوم أن ذبنا في لمسات أيدينا وفي لهيب أنفاسنا، في دفء شفتانا وفي القبلة العابرة.

و لم أعرف كم عمرا ستُهدين كي تقتليني بالعذاب في كل صبح وفي كل أمسية .. و كم ابتهال غفران يقربني إليك .. كم أنشودة وكم أغنية!

فلما أصابت اللعنات جنبات معبدي احترق، ولم يمهلني الحريق حتى أَفْرُغ من صلاتي، ثم اشتد أُتُونها حتى أتى على أروع ذكرياتي، لكن روحَها ظلت تسكنني، احتلتني كلما مرت ظلالها في طرقاتي، كلما التقيت امرأة تحمل اسما كاسمها، وكلما حل شتاءٌ.